

## بحث الأستاذية بعنوان

### دراسات التاريخ الاجتماعى للحروب الصليبية الصادرة فى الخمس والعشرين سنة الأخيرة

د. محمد مؤنس عوض\*

شهدت مرحلة الحروب الصليبية خاصة فى بلاد الشام خلال القرنين ١٢، ١٣ م مجالا واسعا للتأليف عنها خلال الربع قرن الأخير سواء ذلك فى الغرب الأوروبى، أو فى الولايات المتحدة الأمريكية، وكذلك فى العالم العربى، وعلى نحو خاص أرض الكنانة.

ومن الملاحظ أن المرحلة المذكورة، تعددت فيها الدراسات الخاصة بتلك الحروب التى شهدت صفحة من تاريخ المواجهة بين الشرق والغرب فى القرون الوسطى، ومن المهم الإقرار بتطور تلك الدراسات، فبعد أن كان اهتمام مؤلفيها بالتطور التاريخى العام لأحداثها إلا أن المرحلة الأخيرة شهدت تعدد المؤلفات فى العديد من الزوايا التى لم يكن اهتمام بها فى مراحل سابقة من مسيرة التأليف التاريخى عن تلك المرحلة.

ومع ذلك، تواجه الباحث المتصدى بالكتابة عن الدراسات الخاصة بالتاريخ الاجتماعى للحروب الصليبية، خاصة خلال ربع القرن الأخير، عدة صعوبات يمكن إجمالها على النحو التالى:

أولاً- تعدد وتناثر ذلك الإنتاج بين العديد من الدول الأوروبية خاصة إنجلترا، وفرنسا، وألمانيا، وكذلك الولايات المتحدة الأمريكية، بالإضافة الى عدة دول فى العالم العربى وعلى نحو خاص مصر على اعتبار أن الأخيرة كان ابناؤها من المؤرخين الرواد الأوائل، هم أول من ارتاد التأليف التاريخى العربى الحديث عن أحداث مرحلة الحروب الصليبية.

ثانياً- من الملاحظ تعدد الدراسات الخاصة بالجانبين السياسى والحربى سواء لدى المسلمين أو الصليبيين وندر الاهتمام بالجانب الاجتماعى وكثيرا ما وجد الجانب الأخير ضمن دراسات مسحية عامة عن تاريخ الحروب الصليبية واشتمل على صفحات قليلة العدد على الرغم من الأهمية الواضحة لذلك الجانب من أجل تحليل ظاهرة الحروب الصليبية من خلال البناء الاجتماعى لكل من الطرفين المتصارعين.

\* أستاذ بقسم التاريخ - آداب عين شمس - تمت مناقشة البحث فى احتفالية فى ٢٠٠٤/١٢/٨.

وسوف يتم تقسيم الدراسات الصادرة في الربع قرن الأخير الى الآتى:

- المراجع والبحوث العربية.

- المراجع والبحوث المعربة.

- المراجع والبحوث الأجنبية.

### أولاً- المراجع والبحوث العربية:

حسن عبد الوهاب حسين (د.)، مقالات وبحوث في التاريخ الاجتماعى للحروب الصليبية" - ط. الإسكندرية ١٩٩٧م.

ويعد أول كتاب متخصص باللغة العربية بالعنوان المذكور، وذلك على الرغم من قلة الدراسات التاريخية عموماً في ذلك المجال، وقد احتوى الكتاب على دراسات من تأليف المؤلف وأخرى قام بترجمتها عن الإنجليزية، والفرنسية، وبالتالي كان من المفترض الإقرار بأن الكتاب المذكور "تأليف وترجمة د. حسن عبد الوهاب حسين". كما يؤخذ على الكتاب أن عنوانه لا يتفق مع محتواه، فهناك دراسات لا تتصل بالجانب الاجتماعى تتمثل فى:

- دراسة بعنوان: " استيلاء الصليبيين على بيت المقدس ١٠٩٩م فى ضوء رواية بطرس توديبود دراسة تاريخية مقارنة ".

- ودراسة أخرى بعنوان: " مصر وأمن البحر الأحمر فى عصر الحروب الصليبية ".

- دراسة ثالثة بعنوان: " وصايا المنصور قلاوون من خلال مخطوط الفضل المأثور لشافع بن على الكاتب ".

- ودراسة رابعة عنوانها: "أثر العوامل الجغرافية على الحروب الصليبية منذ الحملة الأولى وحتى معركة حطين ١٠٩٧-١١٨٧م (٤٩٠ - ٥٨٣هـ)".

ومن الجلى البين، أن عناوين الدراسات الأربع لا تتفق مع عنوان الكتاب الأصلى.

أما عن الدراسات الاجتماعية التى وردت فى الكتاب فتتمثل فى الآتى:

- يوشع براور، استيطان اللاتين فى بيت المقدس وهى المنشورة فى مجلة

سبيكولوم، م (٢٧) عام ١٩٥٢م Prawer (J.), "The settlement of the

.latins in Jerusalem", Speculum, vol.XXVII, 1952 .

- ايمانويل سيفان، " اللاجئين السوريون-الفلسطينيون فى زمن الحملات الصليبية" المنشورة

فى مجلة الدراسات الإسلامية، العدد (٣٥) عام ١٩٦٧م Sivan (E.), Réfugiés

.croisades", R.E.I., T. XXX Syro-palestiniens au temps des

- جان ريتشارد، "وضع المرأة في الشرق اللاتيني" فريورم ربرنتس، لندن ١٩٧٦م Richard (J.), " Le statut de la femme dans l'Orient latin": Variorum Reprints, London 1976 .

- جيمس برونديج، " الزنا (الدعارة) واختلاط الأجناس والتطهير الجنسي في الحرب الصليبية الأولى" ضمن مؤتمر الحروب الصليبية والاستقرار: نشر ب.و. إديوري، ط. كارديف ١٩٨٥م.

Brundage (J.), Prostitution, Misregeneration and sexual purity in the First Crusade, in Crusade and settlement, ed. By P.W. Edbury, Cardiff 1985..

ونظراً لصدور الأبحاث الثلاثة الأولى قبل عام ١٩٨٠م فلذلك لن يتم تناولها بالدراسة، وإنما سيتم التعرض للبحث الأخير الذي أعده جيمس برونديج ضمن الأعمال الأجنبية خاصة الأبحاث والمقالات.

أما الدراسة الوحيدة التي أعدها المؤلف وتوصف بالفعل بأنها تقع تحت بند التاريخ الاجتماعي فهي بعنوان:

" الرشوة في المجتمع الصليبي في بلاد الشام من الحملة الصليبية الأولى وحتى سقوط بيت المقدس ١٠٩٥ - ١١٨٧م (٤٨٨ - ٥٨٣هـ).

وتعد دراسة رائدة باللغة العربية عن موضوع الرشوة في المجتمع الصليبي من كليرمونت Clermont حتى معركة حطين الحاسمة وسقوط مملكة بيت المقدس الصليبية على إثرها.

وجدير بالذكر، أن دراسة الكيان الصليبي الدخيل على المنطقة من الداخل ومن خلال الأمراض الاجتماعية التي استشرت فيه يمثل أمراً على جانب كبير من الأهمية من أجل معرفة العوامل الداخلية التي مهدت لضعفه ثم انهياره في النهاية.

وقد عمل المؤلف على إبراز دور الرشوة في تاريخ الصليبيين من خلال اعتماده على المصادر الصليبية لا سيما فوشيه الشارترى Fulcher of Chartres، والبرت الأكسي Albert d'Aix، وكفارو Caffuro، ووليم الصوري William of Tyre، وأودو دي دول Odo de Deul، والمصادر البيزنطية مثل انا كومنينيا Anna Comnena، وكيناموس Cinnamus، ونيكتاس خونيئات Nicetas Choniates، بالإضافة إلى المصادر التاريخية العربية مثل ما ألفه ابن الأثير، وأبو شامه، وابن واصل، وغيرهم.

وقد تمكن الباحث بافتدار من إبراز دور الرشوة في مختلف جوانب حياة الصليبيين في بلاد الشام على نحو عمق لدينا الصورة الواقعية لذلك الدافع بعيداً عن الشعارات الدينية، ومحاولة المصادر التاريخية الصليبية المبكرة إظهار

الصلبيين على انهم جند المسيح Militia Christi ومن الأَطهار، وهكذا، تأكد لنا انه أمام بريق المال تساقط العديدون من الصليبيين من أجل تحقيق مكاسب لهم على حساب المشروع الصليبي ذاته.

- قاسم عبده قاسم (د.)، "الدوافع الاجتماعية في الحركة الصليبية"، ضمن كتاب ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط، م(٢) عام ١٩٨٣م.

وتعد أول دراسة باللغة العربية متخصصة عن الدوافع الاجتماعية، وقد عمل مؤلفها على إبراز أوضاع الغرب الأوربي الكاثوليكي في أخريات القرن ١١م في ظل النظام الإقطاعي Feudal System، وأهمية البحث المذكور - في تصوري - انه يعبر عن أوضاع الفقراء من العامة الذين ظلوا مهمشين ولا تهتم بهم الدراسات التاريخية، إذ بدون دراسة ذلك القطاع الذي استجاب بصورة جماعية وفورية للمشروع الصليبي ليس في مقفورتنا فهم طبيعة تلك الحركة التاريخية الكبرى في العصور الوسطى.

ويلاحظ أن المؤلف لم يعتمد على المراجع الحديثة فقط، بل وثق مادته من المصادر التاريخية الأوربية الخاصة بالغرب الأوربي ومن أمثلتها خطابات البابوات مثل البابا نيكولاس الثاني Nicholas II - على سبيل المثال - وما ألفه جيبير النوجنتي Guiber de Nogent تحت عنوان:

"Historia quae dicitur Gesta Dei per Francos".

وكذلك رالف جلابر Ralph Glaber تحت عنوان: Historiarum Libri Quinque.

على أية حال، اتصور أن قيمة البحث المذكور تتمثل في دراسته للدوافع والجذور من أجل التوصل الى حقيقة الحدث التاريخي ذاته وكما قال أستاذنا أ. د. قاسم عبده قاسم في مقدمة بحثه، "ولأن المؤرخ اليوم مطالب بأن يجيب على السؤال الذي يبدأ بكلمة " لماذا"، بدلا من أن يحكى لنا " ماذا "حدث، فانه سوف يسعى بالضرورة وراء الدوافع والأسباب".

- حسين عطية (د.)، "طبائع الفرنج في الحملات الصليبية في ضوء المصادر اللاتينية" ضمن كتاب دراسات في تاريخ الحروب الصليبية، ط. الإسكندرية ٢٠٠٠م.

دراسة علمية قيمة، اعتمد فيها مؤلفها على العديد من المصادر اللاتينية - ومن هنا تكمن أهميتها - وفي هذا الصدد أفاد من مؤلفات مؤرخ الجسات Gestas المجهول، وفوشيه الشارترى Fulcher of Chartres، والبرت الإكسي Albert d'Aix، وراولف أوف كان Radolph of Caen، وجاك دي شترى Jacques de Vitry، مع عدم إغفال المصادر التاريخية العربية عندما احتاج الأمر منه ذلك، ومن أمثلتها ابن القلانسي، وابن الأثير، وبهاء الدين بن شداد، وغيرهم.

وقد حرص المؤلف على إبراز حقيقة مفادها، أن محاولة البابوية إظهار الحملات الصليبية التي تم تغليفها بإطار ديني لم تمنع الصليبيين من إظهار بربريتهم، والقيام بأعمال تتطوى على الفسق والفجور، كذلك أكد على أن العديد من الذين شاركوا في الحملات الصليبية سواء من رجال الدين أو العلمانيين قاموا بارتكاب الفواحش.

وجدير بالذكر، أن أهمية البحث المذكور تتمثل في اتجاه المؤلف الى دراسة الجانب الأخلاقي لدى الصليبيين ومن خلال مصادرهم التاريخية في المقام الأول. ويلاحظ هنا، ان إشارات تلك المصادر لها أهمية قصوى من خلال انها تقرر واقعا معاشا معترفا به من جانب الصليبيين أنفسهم، بعكس روايات المصادر التاريخية العربية التي من المتوقع وجود تحامل من جانبها على الصليبيين من خلال العداء المستعر بين الطرفين على مدى قرنين كاملين من الزمان (١٢، ١٣م).

أما وجه النقد الذي يمكن توجيهه لتلك الدراسة العلمية القيمة، أن الأفضل دراسة موضوعها من خلال مرحلة زمنية أكثر تحديدا مثل تلك الواقعة من ١٠٩٥ الى ١١٨٧م، من أجل معرفة مدى صورة وتطور أخلاقيات الغزاة حتى كارثة حطين التي حلت بهم، أو أن تدرس من خلال القرن الثالث عشر الميلادي على اعتبار ان ذلك القرن شهد تدهورا واضحا في تلك الأخلاقيات على نحو عجل بطردهم النهائي من بلاد الشام في أخريات القرن المذكور وتحديدا عام ١٢٩١م.

- إبراهيم بن حمود المشيفح (د)، "دراسة مقارنة لمشاهدات الرحالة عن الأحوال الاقتصادية والاجتماعية في مدينة صور أثناء الحروب الصليبية (١١٢٤م/٥١٨هـ - ١٢٩١م/٦٩٠هـ)"، بحث في العدد (٢٤) من مجلة كلية الآداب - جامعة الزقازيق - أبريل ١٩٩٩م. يقع البحث المذكور في (٢٢) صفحة، وعلى الرغم من تخصصه في مدينة لبنانية ساحلية هي صور من خلال الجانبين الاقتصادي والاجتماعي، إلا أن البحث يوصف بعدم التعمق ولم يتناول من الرحالة المسلمين سوى المقدسي، والإدريسي، وابن جبير، وابن بطوطة، أما الأوربيين منهم فقد أفاد فقط بما ألفه الرحالة اليهودي الإسباني بنيامين التيطلي Benjamin of Tudela، وقد فاتته الإفادة من العديد من الرحالة الأوربيين الآخرين الذين أشاروا إلى تلك المدينة اللبنانية التي اشتهرت بحصانها التقليدية وكذلك وفرة نشاطها الاقتصادي وثراء وضعها الاجتماعي ومن أمثلتهم سايلوف Saewulf، ودانيال Daniel، وبتاحيا الراتسبونى Petachia of Ratisbo، ويوحنا الورزبرجى John of Wurzburg، وثيودريش Theoderich، ويوركهارد من جبل صهيون Burchard of Mont Sion، وصمويل بن شمشون Samuel ben Samson وغيرهم.

من الملاحظ أن الدراسة المذكورة جاءت موجزة للغاية، كما أن عنصر المقارنة الوارد في العنوان لم يلتزم به الباحث، وكان من المفترض وجود منهج

تحليلي مقارنة فإذا به يفاجئنا بمنهج سردى وصفى تقليدى لمشاهدات الرحالة وبالتالي غابت المقارنة، وكذلك التحليل.

وعلى الرغم من ذلك، من الأهمية بمكان الإقرار بأن البحث احتوى على جوانب لها أهميتها مثل ما ذكره عن أمر الجاليات التجارية الإيطالية، وأشار الى وجود أحياء لعناصرهم فى ميناء صور سواء بالنسبة للنبادقة أو البيازتة، كذلك ذكر أن من عناصر سكانها المسلمين الذين عاشوا بأعداد قليلة بها بعد سقوطها فى قبضة الصليبيين عام ١١٢٤م، ثم نوه الى أمر اليهود الذين كان عددهم بها قليلا.

أما الاحتفالات فى صور، فقد أشار الباحث الى الدينية منها وهى التى كانت خاصة بالقدسين، وتم فيها عمل الشموع، وترديد التراتيل، والأنشيد الدينية. كذلك أورد إشارة أفادت أن تلك المدينة اللبنانية كانت مقرا للاحتفالات الخاصة بزواج الملوك الصليبيين، وخلالها، تم عقد حفلات للرقص، والموسيقى ومنها ما استمر أسبوعين كاملين. كما لم يفته الإشارة الى احتفالات عامة الصليبيين ولذلك أورد أمر " العرس الفرنجى " الذى ورد فى رحلة الرحالة الأندلسى ابن جبير.

- محمد الحافظ النقر (د.)، " التغيرات الإدارية والعمرانية والسكائية فى مدينة القدس فى فترة الاحتلال الفرنجى (الصليبي)، ٤٩٢-٥٨٣هـ / ١٠٩٩ - ١١٨٧ م، ضمن كتاب مؤتمر بلاد الشام فى فترة الصراع الإسلامى الفرنجى ٤٩٣ - ٦٩٠هـ، ط. جامعة اليرموك إربد ٢٠٠٠م.

تناول المؤلف فى بحثه القيم المتغيرات السكانية والاجتماعية التى طرأت على مدينة بيت المقدس خلال مرحلة الاحتلال الصليبي، وقرر انها أصبحت حينذاك مدينة فرنجية فى أغلب البنى الاجتماعية التى سادتها، وقرر أن بداية تكون الطبقة الوسطى من السكان اللاتين فى المدينة المقدسة ترجع الى مرحلة حكم الملك بلدوين الأول Baldwin I (١١٠٠-١١١٨م) الذى سمح لرعيته من النبلاء والفرسان والطبقة الوسطى بوهب جزء من مداخلهم الى كنيسة القيامة، وقد قرر ما نصه: " .. والواقع فإن مكان الطبقة الوسطى فى التنظيم الاجتماعى للقدس تحددت بعدد من العوامل أهمها العدد الكبير لأفرادها مقارنة بمجموع السكان اللاتين، إضافة الى الحرف، والمهن التى كانوا يعملون بها". واستشهد بآراء المؤرخ الفرنسى المتخصص فى تاريخ الصليبيات جان ريتشارد Jean Richard عندما قرر أن الطبقة الوسطى (البورجوازية) كان لها دور كبير فى مدينة بيت المقدس حيث كانوا يقدمون فى وقت الحرب ٥٠٠ من عناصر السرجنت Sergeants، ونظرا لأهمية تلك الطبقة كان يتم تنظيم حياتها من خلال قوانين خاصة تقوم بتنظيمها محاكم البورجوازية Burgesses.

كذلك تطرق المؤلف الى عناصر الرهبان الفرسان Fighting Monks مثل الإيستارية Hospitallers، والداوية Templars وقرر وجود مكانة متميزة لهم في المدينة المقدسة، وذكر أن بعض الدارسين رأوا انها لم تكن تشكل جزءاً عضويًا مكملًا لبعض فئات المجتمع الصليبي في المدينة المذكورة، وإنما ظلت تمثل مجتمعات صغيرة متكاملة داخل الكيان الصليبي.

من زاوية أخرى، أشار الى وضع النصارى المحليين من سكان المدينة المقدسة، وقد ذكر انهم شكلوا المجموعة الأكبر من العناصر غير الأوربية التي قطنت المدينة، وقد عاملتهم المملكة الصليبية من خلال عدم الثقة بهم خاصة فيما اتصل بالعمليات العسكرية.

كذلك نجد أن المؤلف تعرض للاحتفالات التي شهدتها المدينة المقدسة خلال الحكم الصليبي، ومنها عيد الفصح الذي عدّ أهم الاحتفالات، حيث أوردت مؤلفات الرحالة الأوربيين ومنهم دانيال الروسي ذكرًا لذلك العيد وطقوسه.

ويضاف الى ذلك، عيد خاص باحتفال يوم ١٥ يوليو وهو يوافق يوم سقوط المدينة المقدسة في قبضتهم، كذلك أدخل الصليبيون احتفالاً بمناسبة جديدة هي الذكرى السنوية لانتخاب جودفري دى بويون كأول حاكم لمملكة بيت المقدس الصليبية، وهكذا، ازدهرت احتفالات قديمة مثل عيد الفصح، وبعضها استحدثته الغزاة، وعكست تلك الاحتفالات جانباً من الحياة الاجتماعية حيث حرص الملوك الصليبيون، وكبار رجال الدولة، ورجال الدين والحجاج على المشاركة فيها.

ويلحظ، أن البحث المذكور امتاز فيه مؤلفه بالاعتماد على العديد من المصادر التاريخية والجغرافية الصليبية مثل ما ألفه وليم الصوري William of Tyre وكذلك مؤلفات الرحالة الأوربيين مثل دانيال الروسي وغيره، كذلك امتاز البحث بثرائه الكمي، والكيفي ناهيك عن سلاسة عرض المؤلف. ويعد من أهم البحوث التي قدمت في مؤتمر الصراع الإسلامي الصليبي الذي عقد في جامعة اليرموك بالأردن ونشر في إربد عام ٢٠٠٠م.

- موضى عبد الله السرحان، "بيروت تحت الحكم الصليبي وعلاقتها بالمسلمين ٥٠٤ - ٦٩٠هـ/ ١١١٠ - ١٢٩١م"، ط. الرياض ٢٠٠١م.

تناولت الباحثة السعودية المذكورة الموضوع على مدى خمسة فصول، الفصل الأول، "سقوط بيروت في قبضة الصليبيين وتأسيس إقطاع بها عام ٥٠٤هـ/ ١١١٠م، والثاني، فترة الحكم الصليبي الأول لبيروت ٥٠٤ - ٥٨٣هـ/ ١١١٠ - ١١٨٧م، والثالث، فترة الحكم الصليبي الثانية لبيروت حتى نهاية العصر الأيوبي ٥٩٣ - ٦٤٨هـ/ ١١٩٧ - ١٢٥٠م، والرابع، الجهاد ضد الصليبيين حتى استرداد

بيروت ٦٤٨ - ٦٩٠ هـ / ١٢٥٠ - ١٢٩١ م وجاء الفصل الأخير تحت عنوان: "الأحوال الاقتصادية، والنظام السياسي، والأحوال الاجتماعية"، وتعرضت للأوضاع الاجتماعية على مدى الصفحات من ص. ٣١٨ إلى ص. ٣٣٣.

ويلاحظ أن من المفترض ألا يحتوى الفصل المذكور على الجانب السياسي بل الجانب الاجتماعي فقط، وعلى أية حال، جعلت الباحثة تحت العنوان المذكور عنصرين هما:

أولاً- فئات السكان وطبيعة العلاقة بينها.

ثانياً- العمارة المدنية والدينية في مدينة بيروت.

ومن المتصور أن العنوان لا يتفق مع محتويات الفصل كما هو واضح ويلاحظ أن الباحثة في معرض حديثها عن عناصر المجتمع في مدينة بيروت ذكرت أمر العناصر الإسلامية وأشارت إلى ما نصّه: " وقد شارك في سكنى المدينة بعض العناصر الإسلامية التي استقرت بأعداد كبيرة بعد أن جذبتهم المطامع الاقتصادية في المدن الساحلية". أنظر ص ٣٢٥، والواقع أنها تعبر عن الأمر وكأن أهل البلاد الأصليين من المسلمين غزاة لها وطامعين فيها، والمفروض العكس، فالصليبيون هم الذين طمعوا في ثروات المنطقة ولذلك قدموا إليها رافعين شعار الصليب ومن ورائه الأهداف الاقتصادية، والسياسية، والتنصيرية التي اعترف بها المنصفون من الباحثين الغربيين المحدثين.

وفي تصوري، أن من أسباب ذلك التعبير وصدوره من باحثة عربية مسلمة مازق الترجمة من اللغات الأوربية الحديثة إلى لغة الضاد دون إدراك أبعاد ومرامي المؤرخ الأوربي عندما يعبر عن تصورات وأفكار مغايرة.

وفي موضع آخر من الفصل المذكور، أشارت المؤلفة إلى أن المسلمين شاركوا النصاري في بيروت على حد سواء في أعيادهم فخرجوا إلى نهر بيروت ويدعون عيد النهر وتاريخه يوافق ٢٣ أبريل من كل عام، وخرجت من ذلك بانطباع نصه: "مما يدل على مدى التكيف والاندماج بين الفئتين الإسلامية والصليبية في مدينة بيروت في تلك الفترة".

وحقيقة الأمر، أن مثل تلك الحادثة لا ينبغي أن تجعلنا نتصور نجاح الغزاة في خلق ما يعرف بالأمة الفرنجية - السورية، إذ أن طبيعة الكيان الصليبي ذاته بحكم كونه يمثل مشروعا استيطانيا متعصبا يرفض الحوار مع أبناء الديانات الأخرى، كل ذلك جعل الصليبيين عاجزين عن التواصل مع السكان المحليين، وينبغي عدم الانسياق وراء إشارات متناثرة هنا وهناك دون إدراك مراميها الحقيقية، ويلاحظ في هذا الشأن أن مثل تلك الروايات حرص المؤرخون الفرنسيون في أخريات القرن



١٩م والنصف الأول من القرن الماضى على ترديدها من أجل إثبات نجاح الصليبيين فى خلق نموذج للتعايش بين الغزاة والسكان المحليين تدعيما لدور فرنسا المزعوم على المستوى الحضارى فى العصر الحديث تجاه الدول العربية التى خضعت لها مثل سوريا، ولبنان، وتونس، والجزائر، والمغرب.

من ناحية أخرى، يؤخذ على المؤلفة اعتمادها الى حد كبير على التوثيق المرجعى دون المصدري فى العديد من الموضوعات التى تناولتها خاصة ما اتصل بالجانب الاجتماعى، مع عدم إغفال أن الأهمية تعلق على التوثيق المصدري الذى هو الحجة الحقيقية، أما التوثيق المرجعى فيعكس وجهة نظر مؤلف ما عن ذلك العصر.

- راغب حامد البكر (د.)، "الاستيطان الفرنجى فى القدس". ضمن كتاب مؤتمر بلاد الشام فى فترة الصراع الإسلامى الفرنجى ٤٩١ - ٦٩٠هـ / ط. جامعة اليرموك، إربد ٢٠٠٠م.

تناول المؤلف فى بحثه اتجاه الصليبيين فى صورة الملك بلدوين الأول Baldwin I (١١٠٠ - ١١١٨م) إلى استقدام العناصر السكانية خاصة من النصارى الشرق بين، ودعوتهم للاستيطان فى بيت المقدس ومنهم عناصر من نصارى منطقة شرق الأردن، وقرر الباحث حدوث هجرة واستيطان فى بيت المقدس بين عامى ٥٠٩هـ / ١١١٥م، ٥١٠هـ / ١١١٦م.

ويلاحظ هنا، أن الكيان الصليبي عانى من مشكلة مزمنة ظلت تلاحقه منذ بداية تاريخه على أرض بلاد الشام حتى طرده من هناك فى أخريات القرن ١٣م، فى صورة نقص العنصر البشرى. ولذلك عمل الغزاة على إقامة القلاع والمستوطنات فى الضفة الغربية مثل القبية، والبيرة، وكفر مالك، وغيرها، وإعادة توزيع السكان فى المنطقة لصالحهم من خلال تقديم مغريات، وحوافز اقتصادية لعناصر المسيحيين الشرقيين.

- محمد مؤنس عوض (د.)، "أضواء على مستعمرة البيرة الصليبية - ١١٨٧م". مجلة مركز بحوث الشرق الأوسط، عدد عام ٢٠٠٠م.

تناول المؤلف فى البحث المذكور، نشأة وتطور تلك المستعمرة الصليبية التى أقامها الغزاة فى الضفة الغربية لنهر الأردن فى منطقة البيرة الواقعة على بعد ١٦ كم من بيت المقدس، وأهم ما احتواه البحث أمر الطبقة البورجوازية التى تكونت من عناصر الأوربيين الأحرار الذين هاجروا الى مملكة الصليبيين لا سيما من العناصر الفرنسية، وقد عملوا بالزراعة وعدد من الحرف الأخرى مثل النجارة، والحدادة، وغيرها. واستقروا فى مناطق توافرت فيها مصادر المياه سواء من مجارى الانهار او من خلال المياه الجوفية او عن طريق تساقط الأمطار.

واهتم الباحث بإبراز دور تلك الطبقة في مجال الاستيطان، وقد أفاد المؤلف من كتابات يوشع براور وعدد من المراجع الحديثة بالإضافة إلى التوثيق المصدري من خلال وثائق كنيسة الصريح المقدس وهي أساسية من أجل فهم مثل تلك المستوطنات التي أقيمت من خلال تلك الكنيسة.

- فؤاد الدويكات، دراسات في تاريخ الحروب الصليبية، إقطاعية طبريا ودورها في الصراع الصليبي الإسلامي ١٠٩٩-١٢٩١م / ٤٩٢-٦٩٠هـ، ط. إربد ٢٠٠٢م.

انقسم الكتاب إلى خمسة فصول، الفصل الأول بعنوان: طبرية منذ الفتح الإسلامي وحتى بداية الغزو الصليبي، أما الفصل الثاني، فقد اختص بتأسيس إقطاعية طبرية الصليبية ونظام الحكم والإدارة فيها، وجاء الفصل الثالث يختص بالتعرض للدور العسكري لإقطاعية طبرية في محاربة المسلمين، أما الفصل الرابع، فتناول طبرية في العصر الإسلامي ٥٨٣-٦٩٠هـ / ١١٨٧-١٢٩١م، وأخيرا تعرض الفصل الخامس للحياة الاقتصادية، والثقافية، والاجتماعية، والعمرانية، في إقطاعية طبرية في العصر الصليبي.

والملاحظ أن الفصل الأخير، تعرض فيه المؤلف للناحية الاجتماعية خاصة في الصفحات من ٢٩٨ وإلى ٣٠٩ أى على مدى (١٢) صفحة فقط على الرغم من أن العدد الإجمالي لصفحات الدراسة يبلغ ٣٧٢ صفحة، ولا تعليل للوضع القائم إلا من خلال إدراك أن إقطاعية طبرية احتوت على تاريخ ثرى على المستويين السياسى، والحربى، ولذلك اهتم الباحث بإبرازهما وعمل على اختصار الجانب الاجتماعى الذى لا نجد عنه إشارات وأفية في نصوص المصادر التاريخية بالإضافة إلى قلة الدراسات الحديثة بصفة عامة عنه.

مهما يكن من أمر، تناول المؤلف في الجانب الاجتماعى فئات السكان، والدين، واللغة، وأحوال المسلمين في طبرية في ظل الحكم الصليبي، ثم العادات، والتقاليد في الإقطاعية، ومدى تأثيرها في البيئة السكانية.

وجدير بالذكر، اهتمام المؤلف بتفنيد اتجاهات بعض الدارسين الإسرائيليين المحدثين الذين عملوا على المبالغة في أعداد اليهود في إقطاعية طبرية حيث أرادوا إثبات الاستمرارية التاريخية للتواجد اليهودى في فلسطين وذلك من أجل إقناع الأجيال القادمة بالحق التاريخى لليهود فيها.

أما فيما يتصل بالسكان، فقد قرر أن السمة العامة للبناء السكانى في الإقطاعية امتاز بالتمزق والتشتت بصورة أعمق مما كانت عليه فيما قبل الغزو الصليبي، فلم يضاف ذلك الغزو إلا عنصرا إضافيا في صورة الصليبيين حيث ازدادت أعدادهم بصورة كبيرة من خلال تشجيع هجرتهم إلى فلسطين بصورة أدت إلى الإخلال بالتوازن الديموغرافى بين فئات السكان في طبرية.

وعند تناوله لوضع المسلمين فى إقطاعية طبرية الصليبية، قرر سوء أحوالهم بصفة عامة، خاصة أن الغزاة لم يسمحوا لهم ببناء المساجد، كما أن تلك التى أقيمت من قبل، تم تحويلها الى كنائس. وقرر المؤلف أن وضع أسامة بن منقذ الذى سمح له فرسان الداوية Templars بالصلاة فى المسجد الأقصى يعد حالة فردية وكان من قبيل "المجاملة السياسية" على حد قوله. ولذلك ينبغى عدم اتخاذ تلك الحالة وغيرها كدليل على تسامح الصليبيين تجاه المسلمين، ومن ناحية أخرى، لم يغفل الإشارة الى تحول عناصر المسلمين الى درجة الرقيق ولم يكن يسمح لهم باسترداد حريتهم إلا فى حالة اعتناق المسيحية.

بصفة عامة، الدراسة - باستثناء اختصار الجانب الاجتماعى - عمل علمى جدير بالتقدير، وأفاد المؤلف من العديد من المصادر الصليبية كمؤلفات الرحالة الأوربيين، وكذلك المؤلفات التاريخية مثل ما ألفه ريموندا جيل، ووليم الصورى، وجان دى جوانفيل، وغيرهم، بالإضافة إلى المصادر التاريخية العربية مثل ما ألفه ابن الأثير، وبهاء الدين بن شداد، وسبط بن الجوزى، وعز الدين بن شداد، وغيرهم. وذلك بالإضافة إلى المراجع الحديثة بالعربية وباللغات الأوربية.

- على أحمد السيد (د.)، "الخليل والحرم الإبراهيمى فى عصر الحروب الصليبية ١٠٩٩-١١٨٧م / ٤٩٢-٥٨٣هـ"، ط. القاهرة ١٩٩٨م.

انقسم الكتاب المذكور إلى خمسة فصول، الأول بعنوان: بلاد الخليل من غزو الصليبيين لبلاد الشام، والثانى: تخصص فى تأسيس إقطاعية الخليل وحكامها الصليبيون، أما الفصل الثالث فدرس الدور العسكرى لإقطاعية الخليل الصليبية ضد المسلمين، وجاء الفصل الرابع ليتعرض للحرم الإبراهيمى والمزارات فى بلاد الخليل أثناء الوجود الصليبي بها، أما الفصل الخامس، فقد اختص بأهم المظاهر الحضارية فى بلاد الخليل تحت الحكم الصليبي.

وقد تعرض المؤلف للحياة الاجتماعية على مدى صفحات ٣٢٧ إلى ٣٢٩، أى بصورة بالغة فى الاختصار، فى دراسة وقعت أصلا فى ٤٥٦ صفحة، مما عكس الاهتمام بالجوانب السياسية، والحربية، والاقتصادية، وتهميش الجانب الاجتماعى مثلما هو الحال فى الدراسة السابقة.

ويلاحظ أن المؤلف عمل على ذكر الأعياد فى الخليل خلال مرحلة الدراسة ومنها عيد احتفل به الصليبيون تحت إسم عيد الثلاث المقدس Holy Feast of the Trinity، كما وجد عيد خاص بذكرى النبى إبراهيم عليه السلام كل عام وذلك على مدى الأيام من ٦ إلى ٨ أكتوبر، وخلال ذلك أقيم قداس وصلوات طيلة تلك الأيام طلبا للشفاعة من أبى الأنبياء عليه السلام، وبدأ الاحتفال به فى عام ١١١٩م / ٥١٣ هـ

كذلك وجد عيد خاص بالنبیین یعقوب، وداود فی يوم ٢٦ من ديسمبر من كل عام، وذلك بالإضافة الى الأعياد الدينية التي احتفل بها المسلمون كعيد الأضحى، وعيد الفطر، والاحتفال بالمولد النبوی الشریف، ومولد النبی صالح علیه السلام.

وبلاحظ أن الدراسة المذكورة بذل فيها مؤلفها جهدا كبيرا، واعتمد على قائمة ثرية من المصادر الصليبية والعربية إلا انه همش الجانب الاجتماعي على الرغم من أهميته عند دراسة الخليل في المرحلة موضوع الدراسة.

- رئيسة عبد الفتاح العزة، " نابلس في العصر المملوكي"، ط. نابلس ١٩٩٩م.

نظرا لكون العصر المملوكي قد شهد ما يزيد على أربعة عقود من الزمان ١٢٥٠-١٢٩١م في مواجهة الوجود الصليبي في بلاد الشام، فلذلك تم الاهتمام بمثل تلك الدراسات التي تتناول بعض مدن ذلك الإقليم خلال العصر المملوكي ومنها مدينة نابلس كبرى مدن الضفة الغربية لنهر الأردن.

احتوى الكتاب على خمسة فصول، الأول بعنوان: جغرافية نابلس، والثاني تناول الحياة السياسية في نابلس، وجاء الثالث بعنوان: المجتمع النابلسي في عصر الدولة المملوكية، كما أن الفصل الرابع عنوانه: الحياة الاقتصادية في نابلس، وأخيرا جاء الفصل الخامس بعنوان: الحياة العلمية والعمرانية في نابلس.

وقد اختص الجانب الاجتماعي بالصفحات من ص ٨٧ إلى ص ١١٠ وفيه تعرضت المؤلفة لفئات السكان العرقية وكذلك فئاتهم الدينية. كما درست أقسام السكان من خلال أنماط المعيشة، كذلك بحثت في فئات المجتمع النابلسي، ثم انها تعرضت أيضا للعادات، والتقاليد، ووسائل التسلية، والأعياد، والاحتفالات في ذلك المجتمع، وأخيرا بحثت في أثر الكوارث الطبيعية، والأحداث السياسية على سكان نابلس.

وبصفة عامة، على الرغم من اعتماد المؤلفة على العديد من المصادر العربية، إلا أن دراستها اتسمت بالإيجاز. كذلك ندرت فيها التحليلات، ولم تلجأ الى النقد التاريخي إلا في القليل النادر، ولا ينفي ذلك بطبيعة الحال الجهد الكبير المبذول في ذلك العمل العلمي القيم.

ولعل من أهم ما تعرضت لها المؤلفة في الجانب الاجتماعي، أمر التوزيعات السكانية، وقد أبرزت سياسة الصليبيين الديموغرافية، وقررت أن الأخيرين في بداية أمرهم نفذوا قاعدة "أرض بلا سكان" لذلك ارتكبوا المذابح البشعة ضد السكان الأصليين من أجل تفرغها منهم، وفيما بعد لجأ الغزاة الى إعادة إعمار المناطق الخاضعة لسيطرتهم، ولذلك قرر الملك بلدوين الأول Baldwin I (١١٠٠-١١١٨م) جلب أعداد من المسيحيين من بعض القرى الواقعة فيما وراء الأردن من

البقاء، وعمان، ومنحهم مميزات معينة من أجل إلزامهم بالبقاء. وقررت انه من الطبيعي الا يسمح الصليبيون لمن بقى من السكان بمغادرة البلاد من أجل الاستمرار فى مشاريع الإعمار المختلفة فى مملكة بيت المقدس الصليبية.

ويلاحظ فى هذا الصدد، أن الغزاة توقفوا عن سياسة المذابح حوالى عام ١١١١م، ولم يكن ذلك من خلال دوافع انسانية بل من خلال دوافع اقتصادية، إذ أن السكان الأصليين كانوا يمثلون طاقة انتاجية زراعية، وحرفية، وتجارية، ولذلك حرصوا على إبقائها دعماً لمشاريع الصليبيين فى النهب المنظم لثروات المنطقة.

- سعيد عبد الله البيشاوى (د)، نابلس الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية فى عصر الحروب الصليبية ٤٩٢ - ٦٩٠هـ / ١٠٩٩ - ١٢٩١م، ط. عمان ١٩٩٠م.

انقسم الكتاب الى دراسة تحليلية للمصادر ثم خمسة فصول، الأول عنوانه: "نابلس منذ أقدم العصور وحتى بداية الغزو الصليبي للأراضي المقدسة"، أما الفصل الثانى فعنوانه: "نابلس تحت حكم أسرة ميللى الصليبية وعلاقتها بالمسلمين (١١٠٨ - ١١٦١م / ٥٠٢ - ٥٥٦هـ)، واتجه الفصل الثالث الى دراسة نابلس تحت حكم مريم كومينا وبالين دى ابلين وعلاقتها بالمسلمين (١١٦١ - ١١٨٧م / ٥٥٦ - ٥٨٣هـ)، أما الفصل الرابع، فجاء عنوانه: "تطور أحوال نابلس حتى نهاية الحركة الصليبية (١١٨٧ - ١٢٩١م / ٥٨٣ - ٦٩٠هـ)، وأخيراً كان عنوان الفصل الخامس: "الحياة الاجتماعية والثقافية والأحوال الاقتصادية فى نابلس فى عصر الحروب الصليبية".

وقد اعتمد المؤلف على قاعدة بيبليوغرافية ثرية سواء من المصادر التاريخية الصليبية كالوثائق مثل وثائق كنيسة الضريح المقدس والمصادر الأخرى مثل: ألبرت الإكسى Albert d'Aix، وامبروز Ambroise، وفوشيه الشارترى Fulcher of Chartre، ووليم الصورى William of Tyre وغيرها من المصادر التاريخية بالإضافة الى كتابات الرحالة الأوربيين مثل دانيال الروسى وغيره، وذلك بالإضافة الى المصادر التاريخية العربية المتعددة مثل ابن الأثير، وابن شداد، وابن العديم، وغيرهم.

وفى مجال التاريخ الاجتماعى لنابلس، نجد انه أورد قطاعات السكان التى سكنت المدينة فأشار الى المسلمين وكذلك المسيحيين الشرقيين ثم عناصر السامريين، ثم تعرض لعناصر المجتمع الصليبي، وقرر أن سكان نابلس من الصليبيين كانوا من الفرسان، والنبلاء، ورجال الدين، والتجار.

وقد قرر المؤلف حدوث تأثير من جانب المسلمين فى عادات وتقاليدهم الصليبيين وكذلك فى أسلوب معيشتهم. وعلى نحو خاص فى مجال الطعام،

والشراب، والملابس. ثم ذكر أمثلة على ذلك التأثير من خلال اتجاه الصليبيين الى الاستحمام فى الحمامات العامة.

من ناحية أخرى، أشار الى جانب من السلوكيات الخاصة بالصليبيين مثل انتشار التحلل الخلقى فى صفوفهم معتمدا فى ذلك على نصوص أسامه بن منقذ الشهيرة على الرغم من انه بالرجوع الى قوانين مجمع نابلس عام ١١٢٠م، تأكد صدور قوانين صارمة من جانب الصليبيين لمعاقبة مقترفى جريمة الزنا، ومن المفترض أن رواية أسامه بن منقذ فى ذلك الشأن لا تتطوى على حقيقة تاريخية.

وليس معنى ذلك نفى تلك الجرائم فى صفوف الصليبيين، فالملاحظ حدوث حالات مرجحة كما قرر المؤرخ وليم الصورى William of Tyre عندما ذكر وجود علاقة آثمة بين البطريك هرقل مع باشيا دى ريفيرى زوجة أحد التجار الصليبيين فى نابلس.

بصفة عامة، الدراسة جهد علمى رفيع المستوى إلا أن الجانب الاجتماعى جاء مختصرا وموجزا إذ لم يتجاوز الصفحات من ١٩٣ الى ١٩٨ من بين عدد صفحات الدراسة وعددها ٢٧٩ صفحة.

- أسامه محمد نعيرات، إقطاعية بيسان ودورها فى الصراع الإسلامى الفرنجى (٤٩٢- ٦٩٠هـ/ ١٠٩٩- ١٢٩١م)، ط. عكا ٢٠٠٢م.

انقسم الكتاب الى خمسة فصول مرتبة كالآتى: الفصل الأول عنوانه: "بيسان منذ أقدم العصور وحتى بداية الغزو الفرنجى للأراضى المقدسة ٤٠٠ق.م". ٤٩٢ هـ/ ١٠٩٩م، أما الفصل الثانى فيها بعنوان: "تأسيس إقطاعية بيسان الفرنجية ونظام الحكم والإدارة فيها ٤٩٢- ٥٨٣هـ/ ١٠٩٩- ١١٨٧م"، وجاء الفصل الثالث بعنوان: "دور إقطاعية بيسان العسكرية فى محاربة المسلمين ٤٩٤- ٥٨٣هـ/ ١١٠١- ١١٨٧م"، وكان عنوان الفصل الرابع: "بيسان فى العصر الإسلامى ٥٨٣- ٦٩٠هـ/ ١١٨٧- ١٢٩١م، وأخيرا، جاء الفصل الخامس والأخير تحت عنوان: "الحياة الاجتماعى والعلمية والاقتصادية والعمرانية فى إقطاعية بيسان خلال فترة الصراع الإسلامى الفرنجى ٤٩٢- ٦٩٠هـ/ ١٠٩٩- ١٢٩١م.

وقد تناول المؤلف الحياة الاجتماعى على مدى الصفحات من ص ٢٠١ الى ص ٢١٣، وتعرض فيها لعدة نقاط منها البنية السكانية، وقد قرر أن بيسان عاش فيها حينذاك العربى، والتركى، والأرمنى، والسريانى، الى جانب عناصر الصليبيين. وفيما يتعلق باليهود، أكد الباحث قلة عددهم اعتمادا على ما ورد فى المصادر اليهودية المعاصرة مثل بنيامين التيطلى Benjamin of Tudela وبتاحيا الراتسبونى Petachia of Ratisbonne.

ومن زاوية أخرى، وضع الباحث ظاهرة التمشق التي سادت الصليبيين معتمداً في ذلك على النص الشهير للمؤرخ الصليبي فوشيه الشارترى Fulcher of Chartres حيث أشار إلى أن الصليبيين الذين كانوا غربيين صاروا شرقيين.

وعندما تعرض المؤلف لطبقات المجتمع الصليبي قرر أنه كان مجتمعاً مقسماً على أساس ديني طبقي عنصري ترأسه الملك وإليه النبلاء الذين شكلوا طبقة متميزة، ومن بعدهم الفرسان ثم عامة الشعب من البورجوازيين وبعد أولئك جميعاً يأتي سكان البلاد الأصليين، وقد قرر أن الآخرين تحولوا تدريجياً إلى درجة العبودية وصارت أراضيهم ملكاً للنبلاء، والفرسان، من خلال المنح والهبات.

على أية حال، الدراسة المذكورة بذل مؤلفها جهداً واضحاً واعتمد على قاعدة بيبليوغرافية ثرية سواء من المصادر الصليبية أو العربية وكذلك الدراسات التاريخية المتخصصة عن الحروب الصليبية، لكن يؤخذ عليه تهميش الزاوية الاجتماعية، كما أنه قدم عرضاً عاماً عن الجانب الاجتماعي لمملكة بيت المقدس الصليبية دون تخصيص ذلك على المنطقة الجغرافية موضوع الدراسة وهي بيسان، ويتجلى ذلك بوضوح من خلال تناوله للعادات والتقاليد حيث قدم عرضاً عاماً لا يلتزم بالخصوصية التاريخية المفروضة من دراسته.

- قاسم عبده قاسم (د.)، "ماهية الحروب الصليبية"، سلسلة عالم المعرفة، العدد (١٤٩)، ط. الكويت ١٩٩٠م.

انقسم الكتاب إلى مقدمة وأربعة فصول وخاتمة. أما الفصل الأول فعنوانه: "فكرة الحروب الصليبية: منظور تاريخي"، وجاء الفصل الثاني بعنوان: "الظروف التاريخية والدوافع"، أما الفصل الثالث فعنوانه: "الحملات الصليبية: عرض تاريخي"، وأخيراً جاء الفصل الرابع تحت عنوان: "الحصاد: أثر الحروب الصليبية في العالم العربي".

وتمتاز الدراسة بالتوثيق المصدري والمرجعي سواء من المصادر الصليبية أو المصادر العربية، وقد اهتم مؤلفها استاذنا أ. د. قاسم عبده قاسم بالتعرض في الفصل الأخير لتأثير الحروب الصليبية من الناحية الاجتماعية. ويعد تناوله في تلك الناحية على نحو خاص من أهم ما تميزت به الدراسة.

وقد قرر أن البنية السكانية، وعلاقات القوى الاجتماعية، والنظام القيمي، والإخلاقي، قد اهتزت بصورة كبيرة كنتيجة للاستيطان الصليبي الذي استمر وجوده على أرض المنطقة لمدة قرنين من الزمان، وكذلك تركت الحروب المستمرة آثارها السلبية.

وقد أفاد أن منطقة بلاد الشام عرفت من قبل مقدم الغزاة بتنوعها العرقي والسكاني بصورة كبيرة على نحو جعلها متحفا حيا للأعراق والأقوام من خلال قدوم العديد من الهجرات السكانية إليها، وهكذا، عندما قدم الصليبيون إليها وجدوا بها عناصر عديدة عربية، وتركية، وكردية، وسيربانية، بالإضافة الى عناصر من الأرمن، والبيزنطيين، وأضاف الصليبيون الى ذلك عناصر من الغرب الأوربي فكان هناك الفرنسيون، والإيطاليون، والألمان، والإنجليز، والإسكندنافيون وغيرهم .. ويقرر ما نصه: " منذ أن جاء الصليبيون جاءت معهم عناصر جديدة زادت من تنوع الفسيفساء السكانية في بلاد الشام من جهة كما أدت الى جعل هذه التركيبة الفسيفسائية في حالة من السيولة وعدم الاستقرار من جهة أخرى".

وقد تعرض لأمر المذابح التي ارتكبتها الصليبيون ضد المسلمين، وقرر انها أدت الى تفرغ سكاني وكذلك إحلال سكاني أوربي في المقابل، وكان ذلك من أسباب السيولة السكانية التي أشار إليها المؤلف، وقد قدم مثالا دالا على ذلك من خلال حالة مدينة القدس، إذ عندما أخضعها الغزاة كانت خاوية تقريبا ولم تكن أعداد الصليبيين تكفي لملء شارع واحد من شوارعها، كما قرر مؤرخهم البارز وليم الصوري William of Tyre، وهكذا قاموا بنقل سكان القرى المسيحية من أجل الاستقرار فيها، وقرر أن ما حدث في المدينة المقدسة تكرر أيضا في سائر المدن التي استولوا عليها، وكذلك أشار إلى أن المسلمين الذين هجروا المدن الشامية والفلسطينية المحتلة لم يلبثوا أن عادوا لسكن المدن نتيجة لاستقرار ونمو الإمكانات الاقتصادية في المدن الساحلية على نحو خاص. وأكد على نقص الإشارات المصادر التاريخية بشأن أعداد أولئك العائدين ونسبتهم العامة بالقياس إلى سكان المدن التي احتلها الصليبيون.

من زاوية أخرى، قرر أن تأثير تلك الحروب تمثل في النظام القيمي والأخلاقي في العالم العربي، ونظرا للعجز عن صد الغزو الصليبي في المرحلة المبكرة من تاريخه، امتلأت النفوس بمشاعر الإحباط والمرارة خاصة مع قدوم أعداد كبيرة من اللاجئين الفارين من مذابح الصليبيين، وهكذا، شاعت ما أسماه المؤلف بروح التقوى السلبية، والتدين العاطفي الهروبي. وفي ذلك الإطار، انتشرت الطرق الصوفية، وقرر أن هناك من المتصوفين من اتجه وجهة عقلانية كما نجد ذلك في السهروردي الحلي الذي أفتى الفقهاء الحلبيون بقتله في عهد صلاح لدين الأيوبي، وكان مصرعه مؤشرا على ظهور اتجاه يناصر الدراويش الذين التفت حولهم أعداد غفيرة من المريدين.

ويضاف إلى ذلك، أن عانت المجتمعات العربية كما يقرر المؤلف، من مظاهر التدهور الاجتماعي حيث انتشر الشذوذ الجنسي على نطاق متسع، وعده



من أخطر الأمراض الاجتماعية مطلقا، كذلك صارت الدعارة من أكثر المهن من حيث الرواج والتنظيم.

ومن زاوية أخرى، كان من بين التأثيرات السلبية الاجتماعية للحروب الصليبية ما لمسناه من توتر العلاقات بين المسلمين والمسيحيين، خاصة في بلاد الشام.

ولا نغفل هنا، مشاركة عناصر الموارد، والسريان، والأرمن، في بلاد الشام في مساعدة الصليبيين. وقد أدى ذلك إلى تزايد الشكوك والمرارة التي تولدت ونتج عنها أحداث عنيفة ضد المسيحيين خلال عصرى الأيوبيين والمماليك.

كذلك تعرض المؤلف إلى اختلال القوى الاجتماعية في بعض المناطق، حيث تحول المسلمون إلى عناصر أقلية في المدن الخاضعة للسيادة الصليبية، ووجدت عناصر منهم ترتد عن الإسلام وتعتنق المسيحية خوفا على أرواحهم، بينما وجد من حافظ على عقيدتهم في مواجهة الصليبيين.

وفي تقديري الشخصي، أن الدراسة المذكورة رائدة باللغة العربية خاصة فيما يتصل بالفصل الأخير المعنون بـ "الحصاد". أثر الحروب الصليبية في العالم العربي، ونظرا لاتجاه المؤلف من قبل لدراسة الزوايا الاجتماعية من خلال النيل وأهل الذمة في مصر سلاطين المماليك، أفاده ذلك كله في التعامل مع الأثر الاجتماعي للحروب الصليبية، ومن ثم جاء عرضه المتميز عن المؤثرات التي أحدثتها تلك الوقائع الصاخبة التي شهدها ساحة العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى وأثرها على العالم العربي. ويلاحظ أنه تناول التأثير الاجتماعي دون أن يعزل التأثيرات الأخرى الاقتصادية والأدبية وغيرها والتي لا مجال هنا لتناولها بالعرض.

- مصطفى الحيارى (د.)، القدس في زمن الفاطميين والفرنجة . المعهد الملكي للدراسات الدينية، ط. عمان ١٩٩٤م.

تناول الكتاب موضوعا واحدا هو القدس في عصر الفاطميين والفرنجة، وتم تقسيمه إلى ستة عناصر هي: ١- القدس والأتراك السلاجقة، ٢- القدس والاحتلال التركمانى، ٣- احتلال الفرنجة للقدس، ٤- القدس في ظل الاحتلال الفرنجى أ- العمران والسكان. ب- المجتمع والحياة الاجتماعية. ٥- بعد حطين: أ- القدس والحملات الفرنجية بعد حطين. ب- الحملة الفرنجية الثالثة. ٦- القدس والفرنجة في فترة خلفاء صلاح الدين. كذلك احتوى الكتاب على عدد كبير من الملاحق منها نصوص عربية وأخرى نصوص مترجمة عن اللغة الإنجليزية شملت الصفحات من ١٠٢ إلى ١٨٤.

واقع الأمر أن الجانب الاجتماعي وجد في العنصر الرابع، فئة (ب) وشمل الصفحات من ٥٩ إلى ٧١، وقد قرر المؤلف أن مدينة القدس قبل الاحتلال الصليبي لها عام ١٠٩٩م كان تكوينها الاجتماعي مثل أية مدينة إسلامية أخرى، وإن وجدت بعض الاختلافات من خلال كونها مدينة مقدسة للأديان الثلاثة اليهودية، والمسيحية، والإسلام، وقد ذكر أن السكان الصليبيين الجدد لها كان منهم، رجال الدين، وهناك فئة الخاصة التي تكونت من الملك، وخاصته، وكبار النبلاء، وتابعيهم، والبارونات، والفرسان، وأشار إلى الطبقة البورجوازية التي اهتم بها المؤرخ الإسرائيلي يوشع براور، كذلك تعرض لعناصر الهيئات الدينية الحربية الصليبية مثل الإسبتارية، والداوية وغيرهما، كما أورد أمر المسيحيين الشرقيين، وكانوا يشكلون المجموعة الأكبر من العناصر غير الأوروبية التي قطنت المدينة ولم تصل مكانتهم الاجتماعية إلى مستوى أقل المجموعات الأوروبية وأدناها في السلم الاجتماعي في عاصمة الكيان الصليبي وكان أساس تعامل الدولة معهم عدم الثقة خاصة فيما يتصل بالجانب العسكري.

ومن ناحية أخرى، تعرض المؤلف لأمر الاحتفالات والأعياد في المدينة المقدسة، وقرر تعددها وأهمها عيد الفصح وهناك الاحتفال السنوي بيوم استيلاء الفرنجة على المدينة في ١٥ يوليو من كل عام، وكذلك احتفال بذكرى انتخاب جودفري دي بويون حاكماً للمدينة بعد ذلك بثلاثة أيام، وكذلك الاحتفال بتتويج الملك عند اختيار ملك جديد.

وعلى أية حال، كان الاحتفال بعيد الفصح أهم تلك الاحتفالات على الإطلاق، وهو احتفال يوصف بالقدم، ومن طقوسه خلال مرحلة السيادة الصليبية، إلقاء رجال الدين والبطريرك في وادي يوشفاط مع الجماهير الغفيرة المختلفة، ويتقدمون صوب البوابة الذهبية The Golden gate (ويقالها باب الرحمة كما ورد في المصادر العربية)، والتي كانت تفتح مرة كل عام من أجل ذلك الاحتفال على نحو خاص، ثم يتم الدخول إلى ساحة قبة الصخرة، وبعد أن يتم إدارة الصليب المحمول في ساحة المسجد الأقصى يتم اختتام الاحتفال بإقامة الصلوات في ساحة قبة الصخرة.

أما الاحتفال بذكرى يوم ١٥ يوليو، ففيه كان البطريرك يقود مسيرة من كنيسة القيامة إلى قبة الصخرة، وتتوقف المسيرة من أجل إقامة الصلوات أمام المدخل الجنوبي لقبة الصخرة في تلك الساحة الواقعة بينها وبين المسجد الأقصى، ومن بعد ذلك كان المحتفلون يتجهون صوب مقابر الصليبيين الذين سقطوا خلال أحداث حصارها.

ومن بعد الاحتفال المذكور، أقيم احتفال آخر بذكرى تولى جودفري دي بويون منصبه كحاكم للمدينة المقدسة، وفيه حرص السكان على منح الصدقات الوفيرة.

بصفة عامة، قدم المؤلف عرضاً لأهم الأعياد فى المدينة المقدسة، وأفاد من ذلك مما ورد لدى الرحالة الأوربيين دانيال Daniel ويوحنا الورزبرجى John of Wurzburg، كذلك أفاد من الكتابات الحديثة.

ومع ذلك، يؤخذ على الجانب الاجتماعى طابع الإيجاز الغالب على هـ، كما لم يبرز دور المسلمين فى المدينة المقدسة تحت الاحتلال الصليبي.

- حسين عطية (د.)، " المسلمون فى الإمارات الصليبية فى بلاد الشام". ضمن أعمال مؤتمر بلاد الشام فترة الصراع الإسلامى الفرنجى ٤٩١ - ٦٩٠ هـ، جامعة اليرموك، ط. إربد ٢٠٠٠ م.

تناول المؤلف فى بحثه أوضاع المسلمين داخل مناطق الصليبيين فى بلاد الشام، وهم الذين سكنت عنهم المصادر التاريخية العربية المعاصرة إلا نادراً على الرغم من أنهم كانوا بمثابة العناصر التى تحملت العيش تحت الاحتلال الصليبي، وظلوا يقاومونه بالمقاومة الإيجابية، والسلبية، وحافظوا على هويتهم اللغوية، والدينية، دون أن يذوبوا فى الكيان الصليبي الدخيل.

على أية حال، تعرض المؤلف لوجود المسلمين فى المدن الخاضعة للسيادة الصليبية وكذلك فى المناطق الريفية، وقد أوضح صعوبة ذكر أرقام إحصائية عن أعدادهم، ومع ذلك فقد قرر أن المسلمين شكلوا غالبية عددية بين سكان الريف فى مملكة بيت المقدس اللاتينية وكذلك الإمارات التابعة لها.

وقد أفاد الزميل الفاضل أ. د. حسين عطية من ملاحظة المؤرخ الفرنسى البارز كلود كاهن Claude Cahen عندما فسر نص رحلة ابن جبير بشأن المنطقة الواقعة من تبين إلى صور، حيث قرر أن أوضاع المسلمين الخاضعين للسيادة الصليبية أفضل من أوضاع إخوانهم تحت حكم المسلمين، وقرر أن ذلك يمثل حالة خاصة استثنائية ولا ينطبق على كافة المناطق، وأن ذلك يرجع إلى الشروط التى من خلالها تم استسلام صور فى قبضة الصليبيين عام ١١٢٤ م.

وقد ألقى المؤلف أضواء ساطعة على حياة المسلمين الاجتماعية خاصة القطاع الفلاحى تحت السيادة الصليبية، وفى هذا الشأن قرر أن الفلاح فى نظر الصليبيين ارتبط بالأرض حتى فى حالة انتقال ملكيتها من سيد إقطاعى إلى سيد آخر، وبالتالي كان الفلاحون ينتقلون ليكونوا تحت سلطة السيد الصليبي الجديد، وهكذا، تم اعتبارهم "أفناناً" غير أحرار، ولم يكن يسمح لهم بترك الأرض دون إذن سادتهم.

ويضاف إلى ذلك، قرر المؤلف أن الفلاح المسلم لم يكن يسمح له بالانتقال من قرية ليعيش فى قرية أخرى تابعة لسيد إقطاعى آخر، وأشار إلى أن السادة

الصلبيين عملوا على عقد اتفاقات مع بعضهم البعض من أجل مواجهة محاولات الفلاحين الهرب من الإقطاعات التي أحالت حياتهم الى سجن كبير، ودل ذلك بالطبع على الوضع الغريب لمملكة الصليبيين التي ضمت اليها أغلبية مسلمة في الريف ولم تستطع إخضاعها فعلياً خاصة انهم تعلقوا بإخوانهم المسلمين فيما وراء الحدود، وهو أمر يذكرنا بوضع عرب فلسطين حالياً تحت السيطرة الإسرائيلية.

كذلك تعرض المؤلف الى الضرائب التي أثقلت المسلمين الخاضعين للاحتلال الصليبي، ومن أمثلتها ضريبة العشر التي فرضت على الممتلكات والمنقولات عام ١١٨٣م في عهد بلدوين الرابع (١١٧٤ - ١١٨٥م) على كافة سكان مملكة بيت المقدس من أجل مواجهة تكاليف الدفاع عنها بعد تنامي فعاليات حركة مركز الجهاد الإسلامي بقيادة صلاح الدين الأيوبي.

ولا نغفل إبراز المؤلف لزواية السخرة، إذ أن الصليبيين عملوا على الاستفادة من طاقات المسلمين بالعمل بالسخرة في مناطقهم دون أي مقابل، ودل ذلك على مدى التعسف في معاملتهم.

وبصفة عامة، اعتمد المؤلف على كم كبير من المصادر اللاتينية، والعربية بالإضافة الى المراجع العربية، والأجنبية، والدراسة المذكورة بصفة عامة سلطت الضوء على سوء الأوضاع الاجتماعية التي عاشها المسلمون الخاضعون للسيادة الصليبية.

- حسن عبد الوهاب (د.)، "الجريمة والعقوبة في المجتمع الصليبي في بلاد الشام (١٠٩٥ - ١١٨٧م / ٤٨٨ - ٥٨٣هـ)"، أعمال المؤتمر الدولي بعنوان "الصلبيون في الشرق" التابع للجمعية اللبنانية للدراسات والبحوث التاريخية، المنعقد في الفترة من ٢-٤ ديسمبر ١٩٩٩م.

تناول المؤلف في دراسته، وهي تعد دراسة رائدة باللغة العربية، أمر الجريمة والعقوبة في المجتمع الصليبي في بلاد الشام خلال المرحلة من ١٠٩٥ إلى ١١٨٧م، وقد تطرق للعديد من الموضوعات، ومنها أنواع الجرائم، مثل بيع المناصب الدينية أو ما عرف بالسيمونية والقتل، والسرقه، والدعارة، والخيانة، والتأمر على الملوك الصليبيين، وقدم العديد من الأمثلة لوقائع تاريخية احتوت على تلك الجرائم المتعددة، ثم تناول كذلك، العقوبات التي سنّها الصليبيون من أجل الحد من تلك الجرائم، كذلك تعرض للجريمة والعقوبة في طبقة رجال الدين، والجماعات الرهبانية العسكرية، ومن بعد ذلك اتجه إلى دراسة الجريمة والعقوبة بين الأقليات الخاضعة للصلبيين.

وقد اعتمد المؤلف على حشد من المصادر اللاتينية مثل فوشيه الشارترى Fulcher of Chartres، ووليم الصوري William of Tyre، وارنول

Ernoul، وجاك دي فترى Jacques de Vitry، وغيرهم، بالإضافة إلى المصادر العربية مثل أسامة بن منقذ، والعماد الأصفهاني، وغيرهما، كذلك استعان بقائمة ثرية من المؤلفات الأوروبية والأمريكية في مجال الصليبيات.

وقد خلص المؤلف إلى ثلاث نتائج من بحثه أجملها في الآتي:

أولاً- أن تلك الجرائم التي انتشرت بين الفئة الحاكمة جاءت كنتيجة للتurf الذي صار فيه الصليبيون لا سيما بعد نهاية الجيل الأول منهم.

ثانياً- على الرغم من المحاولات التي بذلت من أجل إيجاد تشريعات للحد من تلك الجرائم، وذلك منذ الحملة الصليبية الأولى وحتى مجلس نابلس الذي عقد عام ١٢٠١م، إلا أن تلك العقوبات لم تكن رادعة على الرغم من شدتها.

ثالثاً- إن مدتي حكم كل من بلوين الثاني Baldwin II (١١١٨ - ١١٣١م)، وعموري الأول Amaury I (١١٦٢ - ١١٧٤) تحتلان مرحلة من أهم الفترات في تاريخ التشريع بالنسبة للمرحلة موضوع الدراسة.

وقد قرر أن قوانين بيت المقدس التي أشارت إلى بعض ما صدر في عصرهما من قوانين لم تسن لارتباطها بحادثة معينة كما هو الحال خلال المرحلة من عام ١٠٩٩ إلى ١٢٠١م، بل كان الهدف إيجاد تشريع ثابت تلتزم به المملكة الصليبية، وقد استندت تلك القوانين على مجموعة من الأعراف السائدة في المملكة المذكورة وعلى مجموعة قوانين جستنيان Justinian (٥٢٧ - ٥٦٥م) في صورة الكودكس Codex، والنوفيلاي Novellae، والدايجست Digest، وكذلك قوانين الغرب الأوربي، بالإضافة إلى قدوم مجموعة من رجال القانون الغربيين من فرنسا على نحو خاص من أجل المعاونة على سن تلك القوانين.

والدراسة المذكورة قيمة ورائدة، غير أن هناك بعض أوجه النقد التي توجه إليها في صورة الآتي:

أولاً- كان الأجدر بالمؤلف الفاضل أن يجعل عنوان دراسته قاصرة على الأعوام من ١٠٩٧ إلى ١١٨٧م، لأمر يسير، وهو انه في عام ١٠٩٥م لم يكن هناك صليبيون في بلاد الشام، ويمكن اتخاذ عام ١٠٩٧ على اعتبار حصارهم لانتاكية حاضرة شمالي ذلك الإقليم.

ثانياً- كان من الممكن للمؤرخ الفاضل، الربط بين معدلات الجريمة في المجتمع الصليبي خلال المرحلة موضوع الدراسة، من أجل الإفادة منها كمؤشر مهم للغاية على الانهيار الذي حل بالكيان الصليبي، وجاءت معركة حطين الفاصلة عام ١١٨٧م كدليل على ذلك.

وعلى أية حال، فإن ذلك لا يقلل البتة من الجهد العلمي البارز الذي اتضح في الدراسة المذكورة.

- محمد فتحى الشاعر (د.)، أحوال المسلمين في مملكة بيت المقدس الصليبية ١٠٩٩-١١٨٧ م، ط، بورسعيد ١٩٩١ م.

احتوى الكتاب على خمسة عناصر يمكن إجمالها على النحو الآتي: المسلمون والصليبيون غداة استيلاء الصليبيين على القدس، النشاط الزراعي للمسلمين في مملكة بيت المقدس، الوظائف التي شغلها المسلمون في المملكة الصليبية، معاناة المسلمين في المملكة الصليبية، موقف المسلمين من الصليبيين في المملكة الصليبية.

وقد اعتمد المؤلف على ستة مصادر عربية في صورة مؤلفات ابن القلانسي، وابن الأثير، وابن جبير، وسبط بن الجوزي، وابن طولون الصالحى، كذلك أفاد من ثلاثة مصادر لاتينية في صورة مؤرخ الجستا المجهول Gesta، وفوشيه الشارترى Fulcher of Chartres، وتاريخ وليم الصورى William of Tyre، كما أفاد من ثلاثة عشر مرجعا أجنبيا سواء بالإنجليزية، أو الفرنسية، في صورة مؤلفات سيفان Sivan (E.)، وماير Mayer (H.)، وكذلك رايلي سميث Riley Smith (J.)، وبنيامين كيدار Kedar (B.)، وغيرهم.

ويلاحظ أن المؤلف، قدم لنا أول دراسة باللغة العربية عن أوضاع المسلمين داخل الكيان الصليبي، وقد سبق بذلك، دراسة قيمة قدمها لنا فيما بعد أ. د. حسين عطية عن نفس الموضوع، واشترك بها في مؤتمر الصراع الإسلامى- الفرنجى التابع لجامعة اليرموك بالأردن الشقيق وصدر عام ٢٠٠٠ م.

ولعل أهم ما ورد فى الكتاب المذكور، ما اتصل بالعنصر الرابع، وهو بعنوان: معاناة المسلمين فى المملكة الصليبية، وفى هذا الصدد تعرض لأمر عدم تمكن المسلمين من ممارسة شعائرهم الدينية بحرية، فى المناطق الخاضعة للاحتلال الصليبي، نظرا لأن الغزاة لم يسمحوا لهم ببناء المساجد، كما أن المساجد المقامة تم تحويلها إلى كنائس، وهكذا افتقدت الحياة الاجتماعية للمسلمين زاوية رئيسة فى صورة حرية إقامة الشعائر الدينية، خاصة الصلاة، ونجد أمثلة دالة على ذلك فى صورة مدينتى عكا، وصور.

ولم يفت المؤلف أن يذكر إشارة وردت فى رحلة ابن جبير أفادت ما نصه: "الذلة والمسكنة الذميمة ومنها سماع ما يفجع الأفئدة"، واصفا بذلك وضع المسلمين تحت الاحتلال الصليبي.

كذلك أشار، إلى أن المملكة الصليبية حرّمت على المسلمين دخول مدينة بيت المقدس والإقامة بها، مع ملاحظة بعض الاستثناءات، في صورة القيام ببعض الأعمال التجارية، أو زيارة المسجد الأقصى.

ومن زاوية أخرى، تعرض المؤلف إلى تحول المسلمين إلى عبيد تحت ذلك الحكم الجائر، وكان الصليبيون يحتفظون بالأسرى من أجل مبادلة الأسرى المسلمين بأسرى صليبيين، وكذلك من أجل الحصول على الفدية أو بيعهم في أسواق الرقيق، وقرر أن اعتناق المسيحية كان الحل الأمثل من أجل التخلص من الرق، وهكذا، وجدنا حالات متعددة للزواج بين الصليبيين والنسوة المسلمات اللاتي أكرهن على التنصّر.

### ثانياً- المراجع والبحوث العربية:

- كلود كاهن، الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية ت. أحمد الشيخ، ط. القاهرة ١٩٩٥م.

انقسم الكتاب إلى (١٧) فصلاً عناوينها على النحو التالي، "الشرق حتى بداية القرن الحادى عشر"، "الشرق الأدنى فى القرن الحادى عشر" (افريقيا الغربية)، "الغرب عشية الحرب الصليبية بداية الحملة"، "الصليبيون فى آسيا"، "الإتصالات الأولى"، "الشرق اللاتينى"، "الأوضاع السياسية حتى الحملة الصليبية الثانية"، "النصف الأول من القرن الثانى عشر"، "التجارة والتطور الروحى"، "تطورات أواسط القرن الثانى عشر"، "التجارة فى القرن الحادى عشر تنظيمها"، "العملة"، "صلاح الدين"، "مؤسسات الشرق اللاتينى"، "السكان المحليون"، "الجيش"، "الفترة الأيوبية"، "التنظيم التجارى والنقدى"، "الفترة المغولية".

الدراسة المذكورة اهتم مؤلفها، وهو أكبر وأشهر مؤرخ فرنسى فى مجال الحروب الصليبية فى النصف الثانى من القرن ٢٠م، ولا يزال يحتل مكانة سامية حتى بعد رحيله أخيراً. وقد اهتم بالجانبين السياسى والاقتصادى لا سيما التجارى على نحو خاص، وهكذا نجد ان الجانب الاجتماعى محدود، ويمكن ملاحظته على مدى الصفحات ص ٢١٥ إلى ص ٢١٨ فى الفصل المعنون بـ "السكان المحليون"، وقد قرر فيه ما نصه " أن الصليبيين اعتبروا أغلب المحليين وحتى المسيحيين منهم هراطقة غير جديرين بالاحترام ولم يجدوا حرجاً فى نهب كنائسهم وأعيانهم، غير أن أحكام الضرورة والتعايش جعلتهم يتخذون تدريجياً مسلماً أكثر مرونة"، وفى هذا اعتراف واضح من جانب مؤرخ فرنسى بارز يفيد بأن الشعارات الدينية التى رفعتها الحركة الصليبية كانت مضللة، والواقع التاريخى الفعلى عكس ذلك.

ومن ناحية أخرى، قرر ما نصه: " كان المسلمون إذا محرومين فى أغلب الوقت من أطرهم الاجتماعية، والدينية الرسمية، والتقليدية"، ويلاحظ انه أوضح

تفسيرا مهماً لنص رحلة ابن جبير عندما قرر أن أوضاع المسلمين تحت السيادة الصليبية أفضل من أوضاع إخوانهم تحت حكم القيادات المسلمة. وكشف كلود كاهن أن ذلك النص فسر خطأ في "غمرة الغبطة التي صاحبت العصر الاستعماري"، والصواب أن ذلك ارتبط بمقاطعة صور التي زارها ذلك الرحالة الاندلسي من خلال شروط تسليمها للصليبيين عام ١١٢٤م.

وفي المقابل، كنوع من المقارنة قرر أن اليهود نعموا بالأمن والأمان خاصة في مصر في القرن السابق على الحروب الصليبية، أي القرن ١١م، وقرر ما نصه: "كانت مصر تعتبر دائماً جنة اليهود".

ويلاحظ أنه قرر تعرض اليهود للتضييق من جانب الصليبيين. وهكذا، يتأكد لنا أن الأخيرين عجزوا عن التواصل مع أصحاب الديانات السماوية الأخرى في صورة اليهودية والإسلام، وكان ذلك من أهم عوامل إخفاق المشروع الصليبي في النهاية.

ومع ذلك، يلاحظ أن الجزء الاجتماعي في الكتاب يعد محدوداً نظراً لغلبة الجانبين السياسي، والاقتصادي، وهو أمر أمكن ملاحظته في الدراسات الحديثة سواء العربية، أو المغربية، أو الأجنبية، كما نلمح في كتابه ميلاً إلى اليهود بحكم يهوديته والسعي لإبراز تاريخهم بصورة أو بأخرى، حتى بصورة مفتعلة أحياناً.

ويلاحظ أن المؤرخ الفرنسي البارز اعتمد في تأليف كتابه على رؤية غربية حديثة كاملة، فالمراجع فرنسية، وإنجليزية، وألمانية، وإيطالية، ولم يستفد من أية دراسات حديثة باللغة العربية عن الحروب الصليبية على الرغم من إجادته التامة لها، وفي عبارة وردت في الكتاب يقرر ما نصه: "باستثناء بعض الحالات النادرة لم يفعل الشرقيون سوى استخدام الأبحاث الغربية في دراستهم بعد تغيير رموزها بحيث تصبح الانتصارات هزائم والعكس بالعكس".

ولا تعليق على هذا الكلام غير العلمي سوى أنه يعكس غرور قطاع من المستشرقين وتعاليمهم، ومن المؤكد أن الاستعلائية الغربية هي التي أملت على ذلك المستشرق تلك العبارة. ومن الواضح أنه اعتمد على رؤية واحدة وهي الرؤية الغربية على الرغم من أن العرب والمسلمين يكتبون دراساتهم الأكاديمية وغير الأكاديمية ويعبرون عن وجهة نظر الفريق الذي تعرض للغزو الصليبي.

وهكذا، يتأكد لنا أنه ليس كل ما يكتب في الغرب الأوربي يتسم بالموضوعية، بل إن الرؤية المتعصبة تحرك قطاعاً من المستشرقين هناك، وذلك مع تقديري الشخصي لجهد ذلك المستشرق الفرنسي الراحل البارز، وزاد الأمر سوءاً بطبيعة الحال بعد أحداث ١١ سبتمبر.

- يوشع براور، "عالم الصليبيين" ت. قاسم عبده قاسم، ومحمد خليفة حسن، ط. القاهرة ١٩٩٩م.



قسم المؤلف كتابه إلى تسعة فصول، الأول بعنوان: "ثلاث امبراطوريات وأربع دعاوى". والثاني اختص بعنوان: "المملكة الصليبية"، والثالث تناول الصليب والهلال، أما الرابع فبعنوان: "الشرق"، وجاء الفصل الخامس ليتعرض للمثال والواقع، وبالنسبة للفصل السادس نجده يتعرض للحياة فيما وراء البحار، ونجد الفصل السابع بعنوان: "قصص الفرسان والأنظمة العسكرية"، أما الفصل الثامن فعنوانه: "القلاع والشؤون الحربية"، وجاء الفصل التاسع والأخير بعنوان: "مقامرة التجارة والعالم المتسع".

والواقع أن الفصل السادس امتد من ص ١٠٧ إلى ص ١٢٥، تناول فيه المؤلف أضواء كاشفة عن الحياة الاجتماعية داخل الكيان الصليبي.

وينبغي ملاحظة أن المؤلف هو رائد مؤرخي الحروب الصليبية الإسرائيليين، والكتاب المذكور اتسم بالإيجاز بصفة عامة مقارنة بدراسته الموسعة عن مملكة بيت المقدس اللاتينية، وقد أدرك استاذنا أ. د. قاسم عيده قاسم، وأ.د. محمد خليفة حسن أهمية ترجمته، فكان أول كتاب يترجم الى لغة الضاد من مؤلفات ذلك المؤرخ.

على أية حال، نجد أن المؤلف اهتم بإبراز زوايا معينة عن الحياة الاجتماعية في الشرق اللاتيني Latin Orient، فتناول المنازل، وأنماط الحياة التي تباينت حسب كل طبقة من طبقات المجتمع الصليبي، واهتم بأمر طبقة البولاني Poulains أو الأفراخ الذين نتجوا عن التزاوج بين الصليبيين، والمسيحيين الشرقيين، وحرص على إبراز انتقادات المؤرخ الصليبي جاك دي فترى Jacques de Vitry، لهم على اعتبار انهم من المخنثين وأن حياة الترف التي عاشوا فيها أفسدتهم. وقد قرر كذلك ارتفاع معدلات الجريمة داخل الكيان الصليبي وذكر أن حوادث القتل بصورة سرية أو جهرا كانت تحدث في كل ليلة وكذلك في كل يوم، وخلالها كان الرجال يخنقون الزوجات، كما أقدمت الأخبار على الفتك بأزواجهن من خلال أنواع السموم، وقرر أن أحدا لم يكن يثق في الآخر، إذ أن أعداء الانسان في داخل بيته في صورة أهل، كما قرر براور نقلا عن ذلك المؤرخ إشارة تفيد انتشار الانحلال الخلقي وأن من الرهبان من قاموا بتأجير منازلهم للمومسات نظرا لما يدفعنه من أموال وفيرة، ودل ذلك كله على مدى الانحطاط الذي وصل اليه ذلك المجتمع الذي سقط بالفعل من الداخل قبل سقوطه على أيدي قادة حركة الجهاد الإسلامي من الخارج.

ويلاحظ أن المؤلف عمل على إبراز أهمية دور الطبقة الوسطى البورجوازية التي قدمت إلى بلاد الشام مهاجرة من الغرب الأوربي والتي عمل أفرادها في عدة مهن، وحرف، وقرر انها وظائف من النادر أن كانت متميزة، ومنهم كان الصاغة، والنجارون، والحدادون، والطحانون، والطباخون، والخبازون، وصناع الشموع، وغيرهم .. ومن المقرر أن براور يعلق أهمية بارزة على تلك الطبقة في الاستيطان الصليبي في فلسطين خاصة في الضفة الغربية لنهر الأردن.

وبصفة عامة، على الرغم من أن المؤلف يعد مؤرخا بارزا وصاحب إسهامات علمية بارزة في مجال تاريخ الحروب الصليبية، إلا أنه من الملاحظ حرصه بين الحين والآخر على المبالغة وافتعال دور لليهود خلال أحداث تلك الحروب على الرغم من أنهم كانوا كما قرر أ. قاسم عبده قاسم في مقدمة الترجمة ما نصه: "إذا كان ثمة دور لليهود زمن الحروب الصليبية فإنه كان دور المفعول به لا غير".

- يوشع براور، "الاستيطان الصليبي في فلسطين مملكة بيت المقدس"، ت. عبد الحافظ البناء، ط. القاهرة ٢٠٠١م.

أحتوى الكتاب على ثمانية عشر فصلا مرتبة بالترتيب في الموضوعات التالية: عشية الحروب الصليبية، الحملة الصليبية الأولى، الغزو الصليبي وتأسيس الكيان الصليبي، مملكة بيت المقدس الصليبية - طبيعتها واتجاهاتها، الشعوب التي سكنت المناطق الصليبية في بلاد الشام وفلسطين، الغزاة الصليبيون والتقسيم الطبقي للمجتمع الصليبي، التاج الملكي وسلطة الملك الصليبي، آلية الحكومة الصليبية، الإدارة الصليبية المحلية، الكنيسة، أعمال الحج والمزارات المقدسة في فلسطين، الكنائس الشرقية، اليهود، الهيئات الدينية العسكرية، أسلحة الحرب والتحصينات الصليبية، الحياة الاقتصادية والتجارة، الفنون الصليبية، تراث الفترة الصليبية (الحصاد).

وجدير بالذكر، أن الفصل السادس المعنون بـ "الغزاة الصليبيون" يمكن وصفه بأنه يتناول الجانب الاجتماعي ويقع على مدى الصفحات من ص ٨٣ إلى ص ١١٩ في كتاب وصلت عدد صفحاته إلى ٦٣٥ صفحة. وقد قسم فيه طبقات المجتمع الصليبي إلى طبقة النبلاء، والطبقة البورجوازية Bourgeses، والكوميونات الوطنية الأوربية. والواقع أن أهم ما أورده ذلك المؤرخ البارز ما اتصل بالطبقة البورجوازية، وقرر أن تلك الكلمة في الشرق اللاتيني كانت تطلق على أولئك الأفراد الذين لم ينتموا إلى طبقة النبلاء، ولم يكونوا "أقنانا" Serfs، ولم يفته التقرير باختلاف المدلول عن الغرب الأوربي، إذ كانت كلمة بورجوازية في أوروبا اشتقت من كلمة البرج Bourg، أو الضاحية Suburb- borough.

ويقدم براور إشارات على جانب كبير من الأهمية عن تلك الطبقة التي لا نجد عنها ذكرا في مؤلفات المؤرخين المحدثين الأوربيين السابقين مثل رينيه جروسيه René Grousset، وستيفن رنسيمان Steven Runciman، وغيرهما، وقد قرر خضوع أفرادها لسيادة القانون العرفي، وذكر، أن تلك الطبقة شكلت حجما كبيرا من سكان المدن في مملكة بيت المقدس الصليبية، وقد عملوا في كافة المهن والحرف الحضرية وعملوا جزارين، وصانعي أحذية، ونجارين، وخياطين، وصانعين، وصانعي أسلحة، وكذلك في مهن الدباغة، وصنع الخمر، والطهي، وبائعى بهارات، وعطور، وقرر الاستفادة من أفراد تلك الطبقة في الجهاز الإداري

الصليبي، كما ذكر انه على الرغم من إقامة بعض عناصر البورجوازيين فى المدن، إلا أنهم مارسوا حرفهم القديمة كمزارعين فى المناطق الريفية المحيطة بالمدن وكان ذلك بمثابة أمر مألوف فى أغلب مدن المملكة اللاتينية.

من ناحية أخرى، اهتم بإيراد إشارات على الدور الذى لعبته تلك الطبقة فى أمر حركة الاستيطان الصليبي فى فلسطين، وقد اتفق الباحثون المحدثون فى مجال الصليبيات أن الإسهام الأكبر ليوشع براور كمؤرخ، يتمثل فى اهتمامه بتلك الزاوية على نحو خاص. وقد أشار الى بعض النماذج الاستيطانية مثل مستعمرة البيرة (ماجنا ماهومريا) Magna Mahumeria والتي قامت على اكتاف العناصر البورجوازية، وقد عمل سكانها فى الأصل بالزراعة بالإضافة الى المهن والحرف الأخرى السالفة الذكر.

ويلاحظ، أن المؤلف يحرص بين الحين والآخر على إقحام دور مفتعل لليهود وهنا ممكن الخطأ القتال الذى وقع فيه هو وغيره من المؤرخين الإسرائيليين مثل بنيامين كيدار Benjamin Kedar، وميرون بنفستى Meron Benvenisti وغيرهما.

ولا يغفل عن الذهن، أن اهتمام براور فى الأصل رجع الى أوجه التشابه بين المشروعين الصليبي فى العصور الوسطى، والصهيونى فى العصر الحديث من حيث أن كلا منهما قام على أساس فكرة أرض الميعاد والاستيطان والدعم المادى، والبشرى، والمعنوى من الغرب، بالإضافة الى عوامل التشابه الأخرى التى لا موضع هنا لتفصيل أمرها.

مجمل القول، أن الكتاب يعد من أهم المؤلفات عن تاريخ الحروب الصليبية ويعد مكسبا للغة العربية أن تتم ترجمته على الرغم من أن المترجم لم يعلق على النصّ التعليقات اللازمة من أجل الرد على المؤلف فى بعض الزوايا التى افتعل فيها دورا لليهود. ومع ذلك يظل إسهام المترجم يدعو الى تقديره حيث أقدم على ترجمة ذلك العمل الكبير الذى يعد أهم إسهام علمى بارز لبراور فى مجال الحروب الصليبية.

- جيمس برونديج، " الزنا (الدعارة): واختلاط الأجnas والتطهير الجنسى فى الحرب الصليبية الأولى ". ت. حسن عبد الوهاب ضمن كتاب " مقالات وبحوث فى التاريخ الاجتماعى للحروب الصليبية " - ط. الإسكندرية ١٩٩٧م.

تناول المؤرخ الأمريكى فى بحثه المذكور أربعة عناصر كالاتى:

- مشاركة المرأة فى الحرب الصليبية الأولى ودورها فى الجيش الصليبي.

- علاقات الصليبيين الجنسية غير المشروعة.

- زواج الصليبيين من النساء غير اللاتينيات.

- الاعتداء الجنسي المتبادل خلال الحرب الصليبية.

وأهمية البحث المذكور، انه يكشف لنا عن قسم من التاريخ الواقعي للصليبيين، وليس كما حرصت كتب الحوليات المبكرة على تصويرهم على انهم أظهار وجند المسيح ولا تحركهم سوى الزاوية الدينية على الرغم من انهم عمليا كانوا أشخاصا عاديين تحركهم ذات الدوافع والمشاعر التي حركت غيرهم.

كما يلاحظ أن أهمية البحث تتأتى من خلال أن مؤلفه تطرق الى ما يعرف بالتاريخ الجنسي Sexual History، وهو اتجاه حديث في الدراسات التاريخية في الغرب الأوربي والأمريكي خاصة، تلك التي اهتم أصحابها بالجوانب الاجتماعية، ومما يذكر في هذا الصدد، أن اختيار المؤلف للحملة الصليبية الأولى يعود الى وفرة المصادر التاريخية خلالها كما هو الحال في المصادر اللاتينية، وقد أفاد عدد كبير منها مثل فوشيه الشارترى Fulcher of Chartres، والبرت الأكسي Albert d'Aix، وجيبرت النوجنتى Guibert of Nogent، وتوديبود Tudebode، ورايموندا جيل Raymond d'Aguilers.

على أية حال، أوضح جيمس برونديج وجود عناصر العاهرات ضمن صفوف الجيش الصليبي وأن الصليبيين عندما كانت تحل بهم الهزائم قاموا بطردهن، أما عندما حققوا الانتصارات حرصوا على إعادتهن مرة أخرى. وتكرر ذلك الأمر عدة مرات من خلال وقائع الحملة الصليبية الأولى.

وقد قرر المؤلف أن المؤرخين الصليبيين حرصوا على ذكر سلوك المسلمين الجنسي واتهموهم بالانحلال غير انهم كصليبيين وقعوا في ذات الدائرة، وأشار إلى عدة وقائع في هذا الشأن عندما مارس الجنس من النساء البيزنطيات بالإضافة الى الغلمان اليونانيين الذين توافروا في بيوت الدعارة التي كانت الدولة البيزنطية تديرها.

من زاوية أخرى، قرر المؤلف حدوث حالات الاعتداء الجنسي من جانب الصليبيين ضد نساء مسلمات، وبصفة عامة، اتجه الى دراسة العقوبات الرادعة التي حرص مجمع نابلس Council of Nablus على إصدارها وذلك في عام ١٢٠١م، وقد أفاد أن المجمع المذكور قرر عقوبات رادعة ضد الرجال اللاتين إذا ما سعوا الى إقامة علاقات جنسية غير شرعية مع النساء المسلمات، ومن أمثلتها:

- إذا ما ثبت أن أحدا ضاجع امرأة مسلمة برغبتها الشخصية يتم إخضاع الرجل كما يقطع أنف المرأة.

- كذلك تقرر انه إذا رغبت امرأة مسيحية بأن تمارس الجنس مع رجل مسلم، يتم تطبيق عقوبة الزنا على كل منهما، أما إذا تعرضت للإغتصاب فهي في هذه الحالة غير مذنبه، ويتم إخصاء الرجل.

ويخلص جيمس برونديج إلى القول بأن قرارات مجمع نابلس هدفت على نحو خاص إلى الحد من العلاقات الجنسية بين المسيحيين اللاتين والأهالي المحليين الذين ظلوا على دين الإسلام ولم يتحولوا الى الديانة المسيحية.

وهكذا، ألقى بحث المؤرخ المذكور الأضواء الكاشفة على ذلك الجانب من حياة الصليبيين خلال الحملة الصليبية الأولى. مع ملاحظة أن تطور تاريخ الصليبيين في بلاد الشام حتى طردهم عام ١٢٩١م يحتاج الى دراسات مستقلة من أجل تتبع ذلك الجانب ومعرفة الفجوة التي كانت قائمة بين المثال والدافع في حياة الصليبيين هناك، إذ أن مثل تلك الدراسة من شأنها تتبع ظاهرة " التاريخ الجنسي للصليبيين " ليس على مدى الحملة الصليبية الأولى بل على مدى تاريخ وجودهم في بلاد الشام.

أما وجه النقد الذي يوجه للبحث المذكور، فيتمثل في أن مؤلفه - وهو من أبرز المؤرخين الأمريكيين حالياً- اعتمد بصورة أساسية على المصادر اللاتينية، وأغفل تماماً رؤية الطرف المعادى للصليبيين وهم المسلمون، فلم يستعن بأى مصدر عربى معاصر لأحداث الحملة الصليبية الأولى أو متأخر نسبياً عنها، واكتفى بترديد الاتهامات -أحياناً- للمسلمين من خلال المصادر الصليبية، ولم يقد من المصادر التاريخية العربية لعرض وجهة نظرها حيال السلوك الجنسي العدوانى للصليبيين ضد المسلمين..

### ثالثاً- المراجع والبحوث الأجنبية:

Constable (G.), "The Historiography of The Crusades", in the Crusades from the prospective of Byzantium and the Muslim World, ed. By Angeliki E. Laiou and Roy Parviz Mottahedeh, Dumberton Oaks, 2001.

جيز كونستابل، الكتابة التاريخية عن الحروب الصليبية ضمن كتاب الحروب الصليبية من وجهة النظر البيزنطية والعالم الإسلامى، نشر انجليكى و. لاو وروى برويز متحدىه، دمبرتون أوكس ٢٠٠١م.

البحث المذكور، يتعرض فيه مؤلفه لتطور الكتابة التاريخية عن الحروب الصليبية حتى وقت صدوره فى عام ٢٠٠١م، ويكشف لنا بجلاء غلبة المؤلفات السياسية والحربية حتى بالنسبة للباحثين الأوروبيين، والأمريكيين وندرة الدراسات ذات البعد الاجتماعى.

وعندما تعرض كونستابل للزوايا الخاصة بالاستيطان والحركة الصليبية كظاهرة تاريخية استيطانية، أشار الى إسهامات المؤرخ الإسرائيلي البارز يوشع براور Joshua Prawer.

وقد أوضح أن العديد من المؤلفات ظهرت عن تاريخ الحروب الصليبية بصورة تفوق أية ظاهرة أخرى في التاريخ الأوربي الوسيط، وقرر أن تلك الحروب كانت بمثابة المرأة التي كشفت كيف رأى الغرب الأوربي نفسه، وكيف تمت رؤيته من جانب الآخرين مثل البيزنطيين، والمسلمين، وغيرهم، وقد تغيرت تصورات الأطراف المتصارعة مع مرور الوقت.

وعلى الرغم من أهمية دراسة كونستابل في تتبع تطور الكتابة التاريخية الأوربية الحديثة منذ أخريات القرن التاسع عشر حتى مطلع القرن الحادي والعشرين، إلا أن المآخذ الرئيسية عنها أن مؤلفها تجنب تماما ذكر أية إسهامات أو إصدارات في العالم العربي وكان الباحثين العرب لم يؤلفوا شيئا عن الحروب الصليبية منذ قرابة النصف الثاني من القرن العشرين، عندما بدأت المدرسة التاريخية المصرية الرائدة تؤتي ثمارها بفعل الرائد الكبير الراحل أ. د. محمد مصطفى زيادة ومن بعده أ. د. حسن حبشي، أ. د. سعيد عاشور، وغيرهم من المؤرخين الرواد، وبالتالي توصف دراسة كونستابل بأنها منحازة، وتعكس رفض الآخر وتعتبر بصدق عن الاستعمارية الأوربية، على الرغم من أن الباحثين العرب عندما يكتبون دراساتهم الببليوغرافية لا يتجنبون دراسات المؤرخين الأوربيين والأمريكيين.

Lev (y.), Saladin in Egypt, Leiden, 1999 ليف (ي)، "صلاح

الدين في مصر" ط. ليدن ١٩٩٩م.

يعقوب ليف، وقد تناول في كتابه عدة فصول، أما الفصل الأول فقد اختص بالمصادر، وفي الفصل الثاني نجده وقد جعله تحت عنوان: صلاح الدين في مصر خلال المرحلة من ١١٦٩ - ١١٧٤م، وقد جاء في الفصل الثالث بعنوان: تماسك وصلابة حكم صلاح الدين، أما الفصل الرابع فعنوانه: الجيش، والخامس اختص بالأسطول، وأخيراً الفصل السادس اختص بالمجتمعات غير المسلمة.

على أية حال، الموضوع ليس بجديد وقد أفنى عشرات الباحثين العرب المحدثين أعواما طويلة في دراسة صلاح الدين الأيوبي سواء في مصر أو في بلاد الشام وشمال العراق. ويلاحظ أن المؤلف لا يقدم رؤية جديدة عما هو معروف أصلا، ولا يمتاز بالتحليل والنقاش أو إثارة قضايا حقيقية من خلال كتابه.

وجدير بالذكر، أن الجانب الاجتماعي جاء محدودا إذ لم يتعرض له المؤلف إلا على مدى الصفحات من ص ١٨٥ الى ص ١٩٣ في دراسة بلغت عدد صفحاتها صفحة.

على أية حال، يعيننا الفصل الأخير، وقد قرر فيه يعقوب ليف أن العناصر غير المسلمة تعرضت للاضطهاد وسعى ما وسعه السعى نحو تعميق ذلك التصور، وأورد بعض الحوادث التى انتقاها كى يصدر أحكاما تعميمية خاصة بالاضطهاد، من ذلك ما ذكره من انه فى شهر مارس ١١٧٢م تم عزل عدد من الأقباط من مناصبهم، كما قرر أن هناك من الأقباط من تحول الى الإسلام، وضرب مثالا دالا على ذلك بابن مماتى الذى كان من أقباط أسيوط وتحول الى الإسلام.

الملاحظ أن المؤلف يهودى متعصب ألف كتابه ليدافع فيه عن فكرة اضطهاد العناصر غير المسلمة، على الرغم من انه فى موضع آخر تعرض للأطباء اليهود وذكر أمر موسى بن ميمون Maimonides الذى كان أحد الأطباء الشخصيين للسلطان صلاح الدين الأيوبي.

ولا نغفل هنا الإقرار بأن عصر ذلك السلطان الأيوبي اتسم بالتسامح بصفة عامة ودليلنا على ذلك عدة اعتبارات:

أولاً- عمل فى الإدارة الأيوبية عناصر من الأقباط، وإذا وجدت حالات استثنائية لعزلهم عن أعمالهم فما ذلك إلا من خلال المناخ العام الخاص بالصراع الإسلامى- الصليبي وخشية القيادة الأيوبية من أن يجد الصليبيون أعوانا لهم على أرض مصر.

ثانياً- تعاون الأقباط مع المسلمين معا فى صنع تاريخ مشترك فى ذلك العصر، ولا أدل على ذلك من انهم رفضوا الحج الى بيت المقدس لزيارة الأماكن المقدسة المسيحية هناك، طالما هى تحت السيادة الصليبية، ولم يذهبوا اليها إلا بعد عام ١١٨٧م عندما حررها المسلمون فى أعقاب معركة حطين الحاسمة.

ثالثاً- احتل صلاح الدين الأيوبي مكانة سامية فى قلوب الأقباط، حيث رسموا صورته واحتفظوا بها فى الكنائس والأديرة.

رابعاً- لم يشهد ذلك العصر أدنى إشارة تفيد بعمليات تطهير عرقى أو إجبار على اعتناق الإسلام، أما الحالات التى حدثت فهى من خلال رغبة شخصية دون أية ضغوط رسمية، وينبغى عدم اتخاذ حالة الأسعد بن مماتى كقرينة مزعومة لوجود تحول قسرى من المسيحيين الى الإسلام.

خامساً- نعم اليهود فى عهد ذلك السلطان المتسامح بمعاملة انسانية رفيعة وقد سمح لهم بدخول المدينة المقدسة بعد أن حرّم الصليبيون عليهم ذلك. ويكفيه فخرا أن موسى بن ميمون اليهودى وهو أشهر طبيب يهودى فى عصره وفى العصور الوسطى بصفة عامة، عمل كأحد أطبائه الشخصيين، وبذلك قدم دليلا على التسامح فى عصر شهد مظاهر التعصب الشديد الذى لمساته فى مسلك الصليبيين من كل ما هو غير مسيحى كاثوليكي، فاكثرت بناهم اليهود، والمسلمون، والمسيحيون الأرثوذكس.

Schein (S.), "Woman in Medieval Colonial Society: The Latin Kingdom of Jerusalem in the twelfth century", in Gendering the Crusades, ed. By Susan B. Edginton, New York 2002.

اهتمت المؤلفة الإسرائيلية التي تعمل في جامعة حيفا بأمر الزواج في مملكة بيت المقدس الصليبية، وقد نظرت الى الأخيرة نفس نظرة استاذها المؤرخ البارز يوشع براور Joshua Prawer ككيان استعماري على أرض بلاد الشام، وقد أشارت الى أن قانون الزواج لم يكتمل شكله النهائي حتي عام ١١٦٠م، وتاريخه امتد حتي عهد فيليب النفاري Philip of Navarre الذي كتب مؤلفه في حوالي عام ١٢٥٠م وراجعته عام ١٢٦٠م في محاولة لإعادة تركيب القوانين التي صدرت في القرن السابق وأعنى به القرن الثاني عشر م.

وقررت الباحثة، أن النساء في العهد المبكر من تاريخ المملكة الصليبية كان بإمكانهن الزواج دون الاستئذان من سادتهم، ومن بعد ذلك صار ملوك المملكة الصليبية يدعمون حقهم في التحكم في الزواج.

من زاوية أخرى، أبرزت أن المرأة في ذلك الكيان الصليبي وجدت نفسها أحيانا تقوم بأمور حربية دفاعية عن أوطانهم (هكذا نقول) ضد أعدائهم المسلمين، ومثال ذلك عام ١١٨٧م، إذ عندما تم تدمير الجيش الصليبي في معركة حطين الفاصلة قامت ماريّا كومنينّا Maria Comnena وهي أرملة الملك الصليبي عموري (١١٦٢ - ١١٧٤م) وزوجة باليان صاحب الرملة Balian of Ramla - قامت بالدفاع عن نابلس، التي تسلمتها كعطية من عموري، وذلك في مواجهة قوات صلاح الدين الأيوبي.

The experience of :Fridman (I.), Captivity and Ransom  
Woman in gendering the Crusades, ed. by Susan B.  
Edginton, New York 2002

إيفون فريدمان، الأسر والفدية: "تجربة المرأة الأسيرة"، في الدراسة السابقة الذكر، وقد أشارت المؤلفة الى عدد من المعارك في بلاد الشام تم أسر النساء فيها، كما في حالة عام ١١٢٦م عندما قام القائد المسلم برسق بن برسق بأسر بعض النسوة وأطفالهن بينما فر الرجال الذين كانت مدينتهم محاصرة من جانب قوات ذلك القائد.

كذلك تعرضت المؤلفة الى وسائل فداء الأسيرات، كما أوضحت أن مصير الأسيرة كان عادة يتحدد من خلال انتمائها الطبقي، ثم قررت إنه بالنسبة للمسلمين فإن كتاب الحوليات الصليبية Crusader Chronicles أشاروا الى انه للطرف



الإسلامي، كانت المكانة الاجتماعية والمظهر الجمالي للمرأة أهمية كبرى، وقد أوردت بعض الأحداث التي تعرضت فيها المرأة للأسر كما حدث بالنسبة للفتاة الشامية رفول بنت أبي الجيش التي أورد أمرها الشاعر والفارس أسامه بن منقذ.

ومن ناحية أخرى، عبرت المؤلفة عن انه من الملاحظ ندرة الإشارات في المصادر التاريخية عن حياة الأسيرات على نحو لا يمكن الباحثين من إلقاء الضوء على تلك الزاوية المهمة من زوايا الدراسة.

Powell (J.), The Role of Woman in the Fifth Crusade, in The Horns of Hattin, ed. By B.Z. Kedar, Jerusalem 1992.

جيمس بوفل، "دور المرأة في الحملة الصليبية الخامسة"، ضمن كتاب قرون حطّين، نشر ب. ز. كيدار، ط. القدس ١٩٩٢م.

اعتمد المؤرخ المذكور بدرجة كبيرة على خطابات جاك دي فترى Jacques de Vitry الذي كان أسقفا لمدينة عكا وقاد أمر التبشير لتلك الحملة الصليبية التي استهدفت الهجوم على مصر بعد أن تأكد للصليبيين أن الطريق إلى استرداد القدس من قبضة أعدائهم، لا يتم إلا خلال إخضاع القاهرة لسيطرتهم العسكرية والسياسية، وقد ساعد المؤلف على دراسته، تخصصه في أمر الصليبية المذكورة من خلال إسهامه العلمي السابق بعنوان:

Anatomy of a Crusade, 1213- 1221, Philadelphia 1986.

تشریح الحملة الصليبية ١٢١٣ - ١٢٢١م، ط. فيلادلفيا ١٩٨٦م.

وقد أشار إلى حمس النساء في الغرب الأوربي لا سيما في إيطاليا وتحديدا جنوة للمشاركة في تلك الحملة الصليبية، وقد تأثر ذلك الأسقف برؤية استجابة النساء للمشاركة في المشروع الصليبي، ويقرر في ذات الوقت، ان النساء المعروفة أسمائهم وأقسمن على الإشتراك في الحملة الصليبية الخامسة قليلة على نحو لا تمكن الباحث من تناولها بشيء من التفصيل، ويقرر انه على أية حال فإن عددا محدودا من النساء نجد انهن ذهبن الى الشرق دون صحبة أزواجهن، وأورد من أسماء المشاركات كاترين برتودوس Catherine Berthoudus شقيقة سيد مالين Lord Malines، كما أن هناك مشاركة من جانب جوليت Guilietta زوجة بارسيلوس ماركسادروس صاحب بولونا Barellus Merxadrus of Bolona، وليسيا Lecia التي كانت أم وليم William، وماريوتا Marriotta من المؤكد مشاركتهن لذلك الرجل من يوركشير Yorkshireman في تلك الحملة الصليبية.

ويقرر المؤلف أن من بين تسع شخصيات نسائية معروفة أقسمن للمشاركة في تلك الحملة فإن اثنتين فقط سافرتا إلى الشرق دون عائلاتهن، وهكذا، سلط بوفل الضوء على دور المرأة الأوروبية في المشروع الصليبي حينذاك.

Kedar (B.), "The subjected Muslims of the Frankish Levant", in Muslims under Latin rule 1100- 1300, ed. J.M. Powell, Princeto.

كيدار (ب.)، "المسلمون الذين تم إخضاعهم في الشرق الفرنجي، ضمن كتاب المسلمون تحت الحكم اللاتيني من ١١٠٠ إلى ١٣٠٠م، نشر ج. م. بوفل، ط. برنستون ١٩٩٠م.

في البحث المذكور، تناول المؤلف بنيامين كيدار، المسلمين الذين خضعوا للسيطرة الصليبية، وتم نشر بحثه في كتاب خاص بالمسلمين تحت الحكم اللاتيني خلال المرحلة الواقعة بين القرنين ١٢، ١٣.

ويلاحظ أن الباحث الإسرائيلي كيدار قد اهتم بالموضوع المذكور من أجل تأصيل تاريخي لموقف الفلسطينيين حالياً من الاحتلال الإسرائيلي، ونجد أنه تناول العديد من العناصر مثل أعدادهم السكانية، وتوزيعاتهم، وأساليب المقاومة التي اتبعوها ضد المحتل الصليبي.

وجدير بالذكر، أن كيدار تعرض لزاوية مهمة في بحثه من خلال ذكره أن من المسلمين من فر من المدن التي سكنها حتى من قبل مقدم الصليبيين إليها، خوفاً على أنفسهم من المذابح المتوقعة، ومن أمثلة ذلك ما حدث في الرملة وكذلك في طبرية.

وفي معرض حديثه عن أعداد المسلمين في ظل الحكم الصليبي، قرر أنه من العسير معرفة أعدادهم، غير أنهم كانوا يمثلون أعداداً كبيرة في المناطق الريفية، وهناك شواهد دالة على ذلك، من أمثلتها أن كاتب الحوليات الصليبي الفارس أرنول Ernoul قرر أن الملك الأرمني ثورس Thoros of Armenia قرر خلال زيارته لبيت المقدس في أواسط عام ١١٦٠م أن المسلمين يسكنون كافة قرى المملكة الصليبية، ومن بعده قرر نفس الملاحظة الرحالة الأندلسي ابن جبیر عام ١١٨٤م عندما زار منطقة الجليل بشمالى فلسطين.

وعند تناوله لأوضاع المسلمين تحت الاحتلال الصليبي، تعرض لأمر القنية Slavery، وأشار إلى أن من المسلمين من خضع للعبودية من جانب الغزاة، ويلاحظ هنا أن الرحالة الأندلسي السالف الذكر، أورد في رحلته أمر الأسيرات المسلمات في مدينة عكا، وهن في الأغلال التي تقيد أرجلهن، وكان ذلك من المناظر المؤلمة المؤثرة في نفسه.

وأشار المؤلف إلى انه وفق قوانين مملكة بيت المقدس كان من الممكن للعبد أن يعتق في حالة اعتناق المسيحية، ويقرر أن بدايات مثل ذلك القانون ليست معروفة، وقرر أن من دوافعه زيادة أعداد الصليبيين من خلال الأتراك الذين وصفتهم المصادر الصليبية الباكرة، على أنهم أكفاء من الناحية العسكرية، كما قرر مؤرخ الجستا Gesta المجهول.

وقد عمل كيدار على توضيح أن ذلك القانون المشار إليه وجد بصورة متوازنة مع ما حدث في غربى البحر المتوسط في أسبانيا خاصة في كتالونيا Catalonia، وبالنسبة Valencia.

وتعرض المؤلف لصور المقاومة التى أظهرها المسلمون ضد الصليبيين خاصة، بمجرد إدراكهم أن الأخيرين قدموا من أجل البقاء والاستقرار على حساب السكان المحليين.

وقرر، وجود حالات للمقاومة أوردتها أسامة بن منقذ في كتابه الاعتبار، كما أن هناك حالات للفرار إلى مناطق المسلمين من مناطق الصليبيين، كذلك أشار إلى تمرد عنيف واسع النطاق حدث في منطقة جبل بحرا Jabal Bahra إلى لشرق من جبلة Jabala في إمارة انطاكيا Antioch، حيث ثارت عناصر النصيرية في عام ١١٣٠م، وتكرر ذات الأمر عام ١١٨٠م.

ومن زاوية أخرى، حدثت بعض الأحداث التى عكست تعاطف المسلمين مع اخوانهم الذين هاجموا مناطق الصليبيين، في ظروف الهجوم السلجوقي عام ١١١٣ م بقيادة آتابك الموصل شرف الدين مودود، وقد أرشدوا اخوانهم في الدين، على مناطق الصليبيين، كما أنهم زدوهم بالإمدادات.

وبضاف إلى ما سبق، أشار بنيامين كيدار إلى أمر التهجير الذى اضطر إليه المسلمون، من خلال ضغط الحكم الصليبي عليهم، مما عكس استحالة الاستقرار الاجتماعى، والتعايش، مع الغزاة في بعض الحالات، وأشهر حادثة دالة على ذلك، ما وقع من جانب الفقيه الحنبلى أحمد بن محمد بن قدامه الجماعلى من قرية جماعيل، من أعمال نابلس، الذى رفض تسلط الصليبيين، وفرضهم للضرائب الباهظة على المسلمين، بل والتضييق عليهم في الصلاة، خاصة من جانب الأمير بلدوين الأبلينى Baldwin of Ibelin سيد ميرابيل Lord of Mirabel.

وما لم يذكر المؤلف، أن ذلك الفقيه الحنبلى، انتقل مع أهله إلى مشارف مدينة دمشق، كجزء من عملية النزوح الجماعى من داخل المناطق المحتلة، إلى الحواض الشامية الكبرى، التى لم يتم إخضاعها للسيطرة الصليبية، وعرف موقعهم بالصالحية، وهى منطقة امتد إليها العمران فيما بعد، وصارت أحد أحياء عاصمة بلاد الشام التاريخية، واهتم بها المؤرخ الدمشقى ابن طولون الصالحى، فألف عنها كتابه: "القلائد

الجوهرية في تاريخ الصالحية"، وكان مصدرنا الرئيسي عن ظاهرة "الجفل" أو الانتقال الجماعي من جانب المسلمين إلى دمشق، كما في حالة أبناء قرية جماعيل.

من ناحية أخرى، تعرض المؤلف إلى زاوية لا تخلو من دلالة، وتتمثل في عنصر التعاون مع الصليبيين، وقد اعترف صراحة بأن ذلك كان على نطاق محدود، ومن الأمثلة القليلة التي أوردتها في ذلك المجال، حاكم الرملة المسلم الذي تعاون مع الصليبيين، واشترك مع جودفري دي بويون Godfrey de Bouillon في معركة عسقلان Ascalon عام ١٠٩٩م، وقرر كيدار، انه أخبر القائد الصليبي بعزمه على التحول إلى المسيحية، كذلك أوضح انه في عام ١١٠٠م، نصح أحد الذين تحولوا من الإسلام إلى المسيحية، الملك بلدوين الأول Baldwin I بتوجيه حملة إلى البحر الأحمر، ويلاحظ هنا، أن مسألة الانسلاخ عن المجتمع الإسلامي إلى المجتمع الصليبي المختلف تماما في الدين، واللغة، والعادات والتقاليد، كان أمرا نادرا حينذاك، وكفى الآن التقرير بأن حالات اعتناق المسيحية كانت محدودة، وهو أمر اتضح بجلاء من خلال دراسة سابقة مفصلة لنفس المؤلف، تحت عنوان "الحرب الصليبية والتبشير".

Kedar (B.), "Crusade and Mission, European Approaches Toward the Muslims" Princeton 1982 من زاوية أخرى، تعرض المؤلف إلى أمر المسلمين الذين حققوا مكانة اجتماعية سامية لدى الكيان الصليبي، ومن أمثلتهم مؤرخ الحوليات حمدان بن عبد الرحيم الذي ألف كتابا عن الفرنج الذين غزوا بلاد الشام ولم يصل إلينا، ويبدو امتلاكه خلفية طيبة حيث نجح في علاج الأمير ألان Alan أول حاكم فرنجي للأثارب التابعة لإمارة انطاكية، وقد تلقى منه كهدية في صورة قرية مار بونيا Mar Buniya، وبناء على ذلك صار من المسلمين القلائل الذين امتلكوا الأراضي في الشرق اللاتيني، وهناك مثال آخر في صورة أن روجر الانطاكي Roger of Antioch قدم لبنى صليح وهم من العناصر الإسلامية التي تعاونت مع الصليبيين في إمارة انطاكية الصليبية هبة في صورة ثلاث قرى وذلك عام ١١١٨م.

ومن المهم الإشارة، إلى أن المثاليين اللذين ذكرهما بنيامين كيدار، لا يعينان إلا الاستثناءات التاريخية البالغة الندرة، إذ أن الوضع الاجتماعي لباقي العناصر الإسلامية الخاضعة للاحتلال الصليبي كان متردبا، وليس من الممكن جعل مثل تلك الحالات النادرة كمقياس عام لوضع المسلمين السوء بصفة عامة.

وبصفة عامة، ألقى البحث المذكور الأضواء الكاشفة على وضع المسلمين تحت الحكم الصليبي، وقد تعددت أدوات المؤلف بين المصادر المعاصرة اللاتينية، والعربية، والمراجع الدينية بالعديد من اللغات الأوروبية.

وبعد عرض الدراسات السابقة التي تناولت التاريخ الاجتماعي للحروب الصليبية بصورة أو بأخرى يمكن التوصل إلى عدة ملاحظات تجمل في الآتي:

أولاً- اتجهت أغلب الدراسات التاريخية الأوروبية والأمريكية، خلال الربع قرن الماضي، في مجال تاريخ الحروب الصليبية، إلى الاهتمام الجانبين السياسي والحربي، وندرت الدراسات الخاصة بالتاريخ الاجتماعي، وتكرر ذات الأمر لدى الكتابة التاريخية العربية، إذ لم يتم الاهتمام بالجانب الاجتماعي إلا متأخراً من خلال إسهامات عدد من المؤرخين المصريين، ومن أمثلتهم د. محمد فتحي الشاعر وأ.د. حسين عطية وأ.د. حسن عبد الوهاب كما اتضح من الصفحات السابقة، ويضاف إلى ذلك إسهامات ما يمكن وصفه بالمؤرخين الفلسطينيين الجدد الذين عملوا على دراسة تاريخ فلسطين عصر الحروب الصليبية، وتناولوا بعض الجوانب الاجتماعية ضمن دراساتهم، ومن أمثلتهم، أ.د. سعيد البيشاوي، وفؤاد الدويكات، وأسامة نعيترات، وقد اتجه ذلك الفريق إلى تفنيد اتجاهات المؤرخين الإسرائيليين الذين بالغوا في حجم الدور اليهودي في ذلك العصر.

ثانياً- كان المؤرخ الإسرائيلي يوشع براور، استاذ تاريخ العصور الوسطى بالجامعة العبرية بالقدس سابقاً، من أهم من اتجه إلى دراسة الكيان الصليبي اجتماعياً، وقد عنى بإبراز دور الطبقة الوسطى الصليبية، في مجال الاستيطان من خلال دراسة المستعمرات الصليبية في الضفة الغربية لنهر الأردن، مثل البيرة، وكفر مالك، والقيبية، وغيرها، واتجه من بعده عدد من المؤرخين الإسرائيليين إلى الاهتمام بالناحية المذكورة مثل: بنيامين كيدار، وسيلفيا سكين، وغيرهما، مع ملاحظة أن أولئك المؤرخين، يؤخذ عليهم إبراز دور اليهود خلال أحداث ذلك العصر في صورة مفتعلة، ويلاحظ هنا أن أوجه التشابه بين مملكة بيت المقدس الصليبية وإسرائيل، من حيث افتقاد مشروعية الوجود، ومشكلات الأمن، والحدود، ومواجهة مقاومة باسلة من السكان الأصليين، الذين انهكوا الكيانيين من الداخل، كل ذلك، دفع ببراور وتلاميذه لدراسة البنية الاجتماعية الصليبية، والمشكلات التي واجهت الصليبيين، والوسائل التي على إسرائيل اتباعها حالياً، من خلال الاستفادة من التجربة الصليبية، وليس غريباً والأمر كذلك أن سعى براور قبل وفاته، في ٣٠ أبريل ١٩٩٠م إلى إقامة مركز دراسات تاريخ الحروب الصليبية في الجامعة العبرية بالقدس.

ثالثاً- على مدى الربع قرن الأخير، عقد مؤتمرات على المستوى العربي، الأول أقامه اتحاد المؤرخين العرب، برئاسة المؤرخ الرائد أ.د. سعيد عاشور استاذ العصور الوسطى بجامعة القاهرة عام ١٩٩٥م، والثاني عقد في إربد

من خلال جامعة اليرموك، ونشرت أعماله في عام ٢٠٠٠م، والأخير ظهرت فيه دراسات ذات بعد اجتماعي من جانب مؤرخين مصريين، وفلسطينيين، وأردنيين، ولبنانيين.

رابعاً- يرى الباحث انه من أجل تطوير دراسات التاريخ الاجتماعي للحروب الصليبية وغيرها من الموضوعات، من الأهمية بمكان، إقامة مركز دراسات تاريخ الحروب الصليبية، حيث يعمل على الرصد الببليوغرافي للمؤلفات الحديثة، والتحقيق، والترجمة، والنشر، وبالتالي يتم مواجهة فعاليات المركز الذي أسسه براور.